

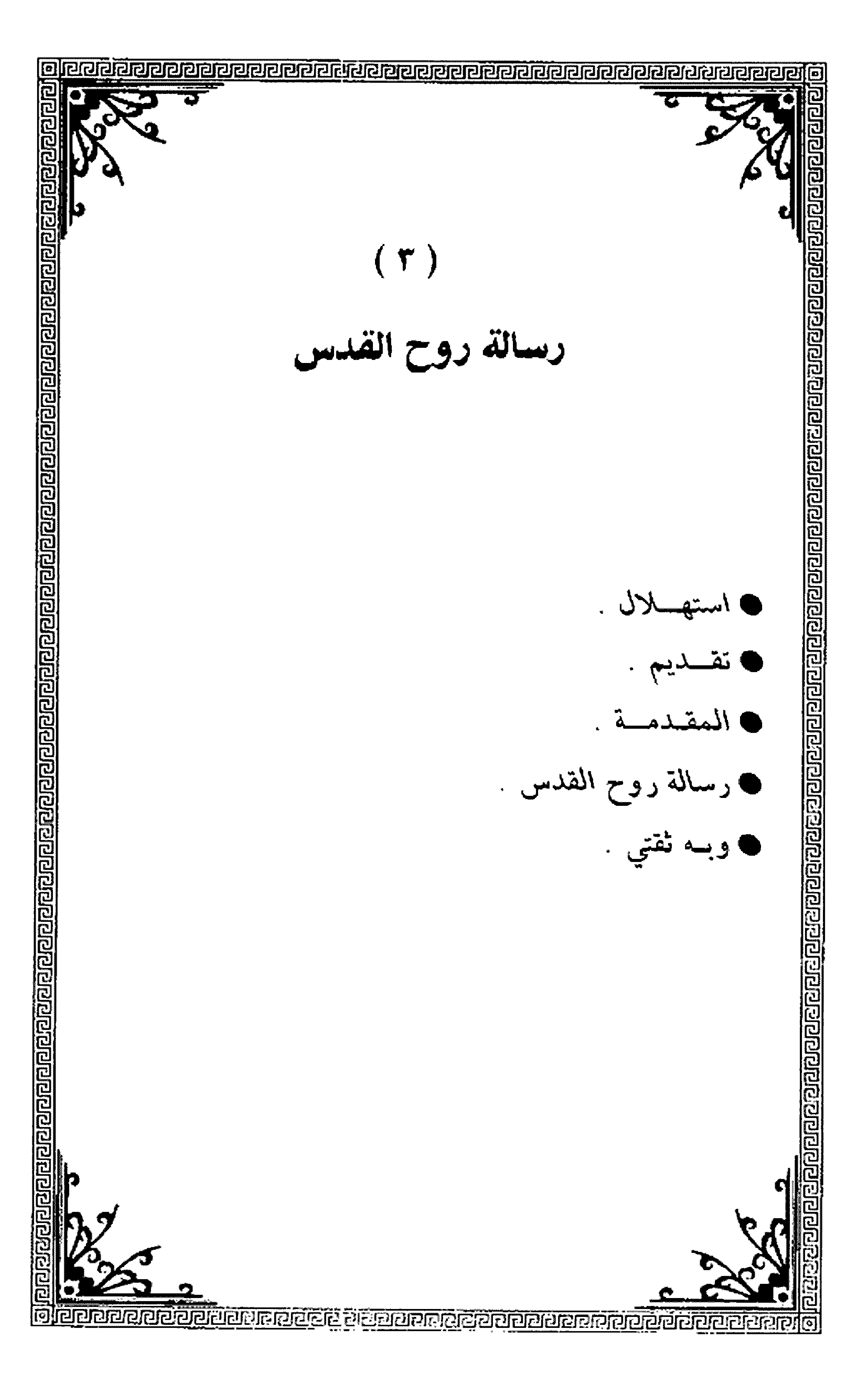
تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

المجلد الأول

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء



(٣)

رسالة روح القدس

- استهــلال .
- تقــديم .
- المقـدمــة .
- رسالة روح القدس .
- وبـه ثقتي .

استهلال

كان لهذه الرسالة النادرة «روح القدس» قصة غريبة عجيبة ، فمنذ عشر سنوات ماضية قابلني أحد الأصدقاء وكان وثيق الصلة بالمرحوم الشيخ (الشعبيني) الذي كانت إقامته دائماً بالجامع المسمى بمسجد «الجمالي يوسف» بالحمزاوي الكبير ، واسم الشارع التاريخي :

«السلطان الصاحب» :

وأخبرني هذا الصديق أنه زار الشيخ ، فأخبره أن عينيه قد أصابهما ضعف حتى أصبح لا يقوى على القراءة ، وطلب أن أقرأ عليه مخطوطات ثلاثاً ، وهي لثلاثة من الرجال أتوا بهم إليه في أزمان مختلفة ، وليس بينهم معرفة ببعض ، وطلب من كل واحد منهم على حدة أن يمهله حتى يستعين بمن يجد فيه الأهلية في استعانته به .

وخلاصة الأمر أنه قد ردّ لكل صاحب مخطوطة مخطوطته ، بعد قراءتي لها عليه .

ثم قال لي : في إحدى زياراتي له : اكتب ما أمليه عليك فكتبت :

«**الأولى** : بها من أكلة الأرض ما يخل بتمامها .

الثانية : بها أسطر ساقطة يجعلها غير صالحة للنشر .

الثالثة : ليس بها من العيوب ما في الأثنتين ، وإنما فيها ما هو أقبح ، حيث أضرب الناسخ صفحاً عن أجزاء كثيرة من الرسالة ، فأصبحت بهذا لا تتفق مع سلامة السرد في السياق» أ . هـ .

ثم قال لي هذا الصديق : فلا أدري هل أخذت منه هذه الورقة ؟ أم احتفظ بها لنفسه ! . وناشدني أن أحاول العمل على نشرها ببحثي في دار الكتب ، أو مكتبة الأزهر الشريف ، أو مكتبة الجامعة العربية ، فيما سيأتي من الأيام .

إلَّا أن الله سبحانه وتعالى أراد ألا يكون فيما مضى من الزمن أن تظهر هذه الرسالة الغالية لعوائق كثيرة شتىٰ .

ومن الغريب الذي يستدعي مني السجود شكراً لله ، إنه سبحانه وتعالى قد ساقها إلي هدية خالصة من رجل طيب ، ألح في قبولي لها منه ، فأخذتها شاكراً ممتناً .

وهي تقع في مائة وأربع صفحات ، وكان تمام طبع هذه الرسالة المباركة المنيفة بمطبعة الحجر بمصر المحروسة ، وذلك في أوائل شهر القعدة الحرام سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف من هجرة خاتم الأنبياء والرسل الكرام (ص) .

تقـديم

لقد خلف الإمام ابن عربي فيما خلف من مصنفات تراثه الروحي الضخم الرائع ما قال صاحب «لسان الميزان» : «وصنف كتباً كثيرة ، منها ما هو كراسة واحدة ، ومنها ما هي مائة مجلد ، وما بينهما» ا . هـ .

ومؤلفاته على كثرتها ، تدلنا على أن الأصل في التصوف الحقيقي : العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها قدر الإستطاعة، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه .

وبهذا نرى أن التصوف حين كان في أول مراحله استجاب الصوفية لتعاليم الله خوفاً من عذابه وطمعاً في نعيمه ، لأن الآداب ثلاثة : آداب الشريعة ، وآداب الطريقة ، وآداب الحقيقة .

فآداب الشريعة : امتثال الأوامر واجتناب المناهي .

وآداب الطريقة : شهود المنة .

وآداب الحقيقة : معرفة مالك وما لله سبحانه وتعالى ، فلك الفقر والعجز والضعف والذلة .

والله الغني والقوة والعزة .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي (رضي الله عنه) : من عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغني ، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرف نفسه بالذلة ، عرف ربه بالعزة .

والحاصل : أن العبودية لها أوصاف أربعة ، والربوبية لها أوصاف أربعة ، فأوصاف العبودية الفقر والضعف والعجز والذلة ، وأوصاف الربوبية الغنى والقوة والقدرة والعزة . فكلما تحقق السالك بوصف العبودية ، أمره الرب بوصف من أوصاف الربوبية .

قال في «الحكم»[1] كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متخلقاً .

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى .

أنا لا أعرف إلاَّ أنتم　　فأجبروني بعطاء منكم
كل شخص لعزيز ينتمي　　وعزيزي ليس إلاَّ أنتم

وقد حدا بهم هذا إلى حب الله حباً عبروا عنه بفنائهم عن أنفسهم وبقائهم بالله وحده ، وجعلوا هذا الحب غاية حياتهم ومنتهى آمالهم .

(١) هي حكم مولانا «ابن عطاء الله» .

المقدمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

بعد ما أحمد الله تعالى وأصلّي وأسلّم على نبيه الأكرم .

أقول : إن من المعلوم بالبداهة أن الإنسان لا يكون كاملاً في نظر العقلاء الأولى لا يألون جهداً في تحصيل المعرفة والفهم عن الله ومحبة دينه إلاّ إذا كان مثلهم ، آخذاً بنفسه نحو تعضيد دينه بالبحث عن حقائقه والتنقيب عن فضائله ، لتتجلى له الحقائق الدينية التي عليها مدار الحياتين ، وتنجلي الفضائل الروحية التي تجعله محباً لوطنه مشفقاً على أهله وعشيرته وكل ذي كبد رطب ، مما يجعله فرحاً مسروراً لأن هذه الفضائل التي يتحلى بها كل مؤمن ، هي التي تدور على قطبها رحى السعادتين .

لذلك أراني ولوعاً في بيان حقيقة ديننا الأقوم ، دين العلوم والمعارف ، وما يطلبه منا من معرفة العقائد السليمة من الكتاب والسنة ، وشرح أوامره ونواهيه ، وغير ذلك من إنضمام التصديق إلى العمل . . فوجدت بغيتي بفضل الله في هذه الرسالة المسماة ـ «روح القدس» لمؤلفها سيدي :

«محي الدين بن عربي» التي يقول في أولها عن نفسه :

«إنها من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمور بالنصح لإخوانه والمشدد عليه في ذلك دون أهل زمانه» .

وقد آثر أن يوجه هذا النصح والتذكير بالأمر والنهي، إلى ولي وأخ له في الله، ذلك لأنه بمثابة الركن الوثيق، فهو من المحبين للذي سيلقى إليه من المعارف والحقائق - وقليل ما هم - في كثير من العصور .

وهذا الأخ الولي هو «محمد بن عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي» نزيل «تونس» .

رسالة روح القدس

ميزة هذه الرسالة النفيسة . إنها من العبد الضعيف الناصح الشفيق ، المأمور بالنصح لإخوانه والمشدد عليه في ذلك دون أهل زمانه .

وهو (رضي الله عنه) موجهاً الحديث فيها إلى وليه[1] في الله «محمد بن عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي» نزيل تونس ، (أبقاه الله تعالى) محفوظاً . وبعون الصون والرعاية ملحوظاً . . إلى أن يقول : أما بعد يا أخي[2] فإن النصح[3] أولى ما تعامل به رفيقان . وتسامر به صديقان . وقلما دامت اليوم صحبة إلاَّ على مداهنة[4] وقد

(١) الأولياء : جمع ولي والولي هو من تولى طاعة الله لا يفتر عنها طرفة عين ، لأن ملازمة ذكر الله تعالى وإكثاره من علامة الولاية ومن جهة التفضل أن الله تعالى يتولى أمره بحيث لا يكله إلى غيره .

(٢) تستعمل كلمة «أخ» في الدين . ﴿إنما المؤمنون أخوة . .﴾ والأخوة في أخ الولادة .

(٣) النصح من الناصح : وصف من أوصاف الكمال لكل من اتصف بالنصيحة لكافة المسلمين التي هي الدين كله كما في الحديث . ناصحاً لعباد الله تعالى لا سيما من استشاره في أموره فينصحه بما يعرف أنه الأصلح في دينه ودنياه . قال (عليه الصلاة والسلام) : «الدين النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم» ومنها أن يكون مشفقاً ، أي خائفاً عليهم .

(٤) مداهناً : أي مخفياً للحق . قال القرطبي : المداهنة : المصانعة ، وقيل داهنت بمعنى =

ثبت أن النبي (ص) قال : «ما ترك الحق لعمر من صديق» .

وخلاصة ما قاله (رضي الله عنه وأرضاه) : أتهام النفس الأمارة بالسوء المتبعة للشهوات المائلة إلى الهوى المجانبة للحق والهدى فيما تأمر به وتنهى عنه ، وعداوتها أكيدة قال (عليه الصلاة والسلام) «أعدى الأعداء نفسك التي بين جنبيك» .

وأكثرية النفوس أمارة بالقبائح والمعاصي لاستلذاذها بها ، ومن هنا وجب القول بأن كل من كان أوفر عقلاً وأجل قدراً عنده تعالى كان أبصر بعيوب نفسه ، ومن كان أبصر بها كان أعظم إتهاماً لنفسه ، وأقل إعجاباً - إلاَّ ما رحم ربي - من النفوس التي عصمها .

* * *

وبالجملة فالشيخ (رضي الله عنه) ما سرد في هذه الرسالة من معارف وحقائق إلاَّ والشرع زمامه فينقل لنا ما يستشهد به من التآصيل النقلية عن رسول الله (ص) وكتاب الله الكريم .

ولقد سئل المشايخ الصوفية عن الإسلام فقالوا : هو ذبح النفس بسيوف المخالفة . أي لأنها إذا اعتادت اللذات لا تنصرف إلى الطاعات إلاَّ بالمجاهدات والتوبيخات الشديدة ، ولذا سميت هذه الأمور سيوفاً ، وذبحها قهرها ونقلها عن هواها . وقد قال بعض الكتاب إن هذا القول منسوب إلى «ذو النون[1] المصري» والحقيقة أنها ليست له .

ومما قاله عن هموم الداعية قوله : وقل يا وليي أن تجد اليوم للناصح من صديق .

= واريت ، وادهنت بمعنى غششت . .

(١) هو أبو الفضل ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصري ولد باخميم من أعمال صعيد مصر حوالي سنة ١٨٠ بعد الهجرة .

ولقد قلت في ذلك شعراً :

لما لـزمت البحث والتحقيقـا لم يتركا لي في الأنـام صديقـا
ولـعمـري والـلّه مـا كـذبت ولا قـلت إلاّ مـا وجـدت

* * *

والشيخ(رضي الله عنه)لا يعتريه الملل أو الفتور في الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، والنصيحة الدائمة ، لأنه يخشىٰ على إخوانه في الدين هؤلاء الأربعة :

إني أبتليت بـأربع مـا سـاطـوا إلاّ لشـدة شقـوتي وعنـائـي
أبليس والـدنيا ونفسي والهـوى كيف الخـلاص وكلهم أعدائي

* * *

وما أظن أن هناك في تراث الشيخ «محي الدين بن عربي» ما هو أجمع لحياته الروحية باختصار جامع إلاّ هذه الرسالة العصماء ، إذا ما استثنينا كتابه الكبير الرائع «الفتوحات المكية» لأنه الموسوعة الكبرى في كل العلوم الشرعية ، وهذا الاستثناء من أجل التركيز على دراسة هذه الرسالة الفريدة لطلاوتها وتأريخها لكل مناسبة في رحلات الشيخ وانتقالاته ، وذكر أسماء من التقي بهم ، و التقوا هم به ، مع ذكر مناقبهم وخصوصيات كل فرد على حدة ، وذكر أسماء هذه البلاد التي شاهدهم بها وعلى الأخص مصر (القاهرة) وهو في كل ذلك لا يطلب بغير كتاب الله وسنة نبيه ورسوله الأكرم بديلاً ، حتى نراه يهون من شأن العقل أمام حكم الشرع إذ يقول :

لا تعتقد غير الذي تتلوه في النـ ـص الذي نطق الكتاب المحكم
وعليه فاعتمدوا وقولوا مثلما قد قاله عن نفسه واستلزموا
واعبد إله الشرع لا تعبد إلـ ـه العقل من هادوا إليه وسلموا
فالناس مختلفون في معبودهم فمنـزه معبـوده ومجسم

وهـو يتحدث إلينـا في كل كتبـه أو رسائله عن التمسـك بالشـريعة والعمل بنصوصها ، فمن ذلك مـا قالـه عن كتابـه «الفتوحـات» اعلم أني لم أقـرر بحمد الله تعـالى في كتابي هـذا أمراً غيـر مشروع . وذلـك في بـاب الكـلام عن الأذان . . وبقـولـه في البـاب الخـامس والستين وثلاثمائة : واعلم أن جميع ما أتكلم به في مجـالسي وتصانيفي إنمـا هو من حضـرة القرآن وخـزائنه ، فـإني أعطيت مفـاتيـح الفهم فيـه والإمـداد منـه ، كـل ذلـك حتى لا أخـرج عن مجـالسـة الحق تعـالى ومنـاجـاتـه بكلامه . ا . هـ .

* * *

ومن الصـدق البين أن الشيخ محيي الـدين (رضي الله عنه) ما مـال عن جادة الطريق حتى في صغره ، أو حاد مـدة حياتـه عن محور الآداب الشـرعية ، لـذلك كـان القطب الـذي تدور عليـه رحى السعادة والقـدوة المتبعة في العلوم والأخلاق يـأخذهمـا من كتاب الله وسنـة حبيبه رسـول الله (ص) ، وقـد وقفت في طـريقـه الأعـداء ، وكم مهـدت لـه أعـداؤه عقبـات التـأخـر ، وجعلت فيمـا بينـه وبين مبتغـاه الحجب الحـالكـة والسحب المظلمة ، ولكنه بفكره الثـاقب ورأيه الصـائب بتوفيق من الله ، محي ديـاجير السحب بنـور الشريعـة الغراء فـطلعت شموسهـا في سمـاء القلوب حتى أشـرقت بسناهـا أرجاء الأنحـاء وأضاءت بشعـاعها الصـدور والوجوه .

تنبئـك عن ذلـك كله تلك الغـزوات المسـطرة وقـائعهـا على صفحات تواريخها في هذه الـرسالـة التي تجري فيهـا النصح والنصيحـة لكافة المسلمين ، إذ النصح هو الخلوص والتصفيـة وكلما إزداد الإيمـان قوة وكمالاً وتوفرت دواعيـه زادت النصيحة بحب الـرحمة والشفقـة . وقد حقق بـذلك ، فـإنـه(رضي الله عنـه)لم يكن مصـانعـاً بـالـدين لتسلم لـه الدنيا ، كما هي حقيقة المداهنة .

* * *

وقــد خلف ابن عـربي (رضي الله عنه) فيمـا خلف من مصنفـات وتـآليف مـا تحـدث فيهـا عن مـوضـوع في الـروحيـات أو في نصــوص الشريعة ، إلاَّ وهو يرجو ويحاول بشتى الكلمات الموحية بنصرة الإنسـان المسلم وكل من يطلب الهداية ، بإقامتـه في حياتـه على السعادة ، وهي كل ما ينفعه في الآخرة .

ومن هذه المصنفات التي في المنتوى أن تقوم بنشـرها مكتبـة عالـم الفكر إن شاء الله :

١ ـ كتـاب «البغية» وهـو عن صوفيـة الصوف الـذين هم بأغـراض الدنيـا مـوشحون واتخـذوا ظاهـر الدين شـركـاً للحـطام . ثم يعقب بـأهـل الحظوة من الصوفية العاملين الذين ذكروا الله بقلوبهم تعـظيماً لـربهم لمعـرفتهم بجلالـه ، فهم حجج الله تعـالى على خلقـه ، ألبسهم الله النــور الســاطــع في محبتـه ، ورفــع لهم أعــلام الهــدايــة إلى مواصلته . . . الخ .

٢ ـ كتاب «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب» .

وسبب تـأليف هذا الكتـاب أن الشيخ (رضي الله عنـه) كان يجلس معه الشيخ أبـو يحيى بن أبي بكر الصنهـاجي وهو من أهـل المعارف والإشـارات والتمكين وقل أن تلقى مثله «هكـذا يقـول سيـدي محـي الـدين» وكان بيني وبينـه مسائـل من الحقائق كثيـرة يضيق الوقت عن ذكرها ، ألف من أجله كتاب «عنقاء مغرب» .

٣ ـ كتاب «الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به في طريق الآخرة» .

* * *

والشيخ (رضي الله عنه) كان يعلم وينتقد من يـراه يحدث خللاً في عقيدته الإسـلامية . ولـذا يخاطب من كتب لـه هذه الـرسالـة : فإيـاك يا أخي ـ عـافـاك الله من الـظن الســوء ـ أن تــظن في أني أذم الفقهـاء من

أجـل أنهم فقهاء أو لنقلهم الفقـه ، لا ينبغي أن يظن هـذا بمسلم ، وأن شـرف الفقه وعلم الشـرع لا خفاء بـه . ولكن أذم من الفقهاء : الصنف الـذي تكالب على الـدنيا وطلب الفقـه للريـاء والسمعـة وابتغىٰ بـه نـظر الناس . . ص ١١٤ .

كمـا أني ذممت الصـوفيـة في كتـابي هـذا ولم أرد بـه الصـادقين وإنما أعني الصنف الذي تزيا بزيهم عند الناس وباطنه بخلاف ذلك .

إلى أن يقـول : وكذلـك ذمي للصوفيـة ، أذم هـذا الصنف الـذي ذكرت فإن الحلولية[1] والإباحية وغيرهم .

من هـذا الطريق ظهـروا وتظاهـروا واتصفـوا فهم قـرنـاء الشيـطان وحلفاء الخسراء ١١٥ و ١١٦ .

وسـأسـرد عليـك أيهـا القـارىء الكـريم بعض مشـاهـد قليلة من رحـلات سلطان العـارفين «محـي الـدين» لأن هـذه العجـالـة تضيق عن ذكرها جميعاً .

يقول الشيخ عن سكان الخانقاهات :

يـدخـل بينهم الصـادق والصـديق فيجهـل ، والعـارف المتمكن فيترك ويهمل ، فـإنه يحمـل على ما هـم عليـه لاشتراكهم في المسكن ، وما بينه وبينهم معاملة في شيء .

ولقد وقع بيـدي منهم بمصر في الخـانقاه بـالقاهـرة ، كهل يقـرب أن يكـون رجيـلاً لا بـأس بـه ، ففـرحت بـه لمـا لم أجـد غيـره . . . ص ٣٩ .

* * *

(١) حلول : تستعمل هذه الكلمة للدلالة على حلول الـلاهوت في النـاسوت وهي عقيـدة النصارى .

هذا اللفظ من الأدلة الواضحة على أنه لا يقول بالحلول .

وعن الصالحين من المشايخ والإخوان والنساء يقول(رضي الله عنه)لوليه الذي كتب من أجله الرسالة : لو دونت لك أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين في الأعمال والجد والإشارات وصحة القصد فياوليي تعال نقم مأتماً للفراق وندب إخواننا الظاعنين وأنا أنشر لك من بعض أحوال من لقيت .

فمنهم وهو أول من لقيته في طريق الله «أبو جعفر العريني»(رضي الله عنه) وصل إلينا ـ إلى إشبيلية في أول دخولي إلى معرفة هذهالطريقةالشريفة ـ فكنت أول من سارع إليه ، فدخلت عليه فوجدت شخصاً مشتهراً بالذكر فتسميت له وعرّف حاجتي . فقال لي : عزمت على طريق الله تعالى ؟؟ فقلت له : أما العبد فعازم ، والمثبت الله . فقال لي : سد الباب واقطع الأسباب وجالس الرهاب (أي الذين يرهبون عذابه ويطلبون رضاه) ـ يكلمك الله من دون حجاب فعملت عليها حتى فتح لي . . ص ٨٨ .

ومنهم شيخنا وإمامنا «أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكوهي العبسي» (رضي الله عنه) ، صحب أبا مدين (رضي الله عنه) ولقي رجالاً بهذه البلاد ، سكن ديار مصر مدة وتأهل بمدينة الإسكندرية ، مناقبه وكراماته وإشاراته أكثر من أن تحصىٰ .

ومن شعري فيه حين فارقته وأنا متوجه إلى مراكش وهو بـ «سيلي قاطن» . . ص ٩١ .

إذا قيل من في الوجود أشرف   يوسف بن يخلف
رب المعالي ، قلب المعاني   أرق شخص : قلباً وألطف

والقصيدة طويلة أودعتها كتاب «إنزال الغيوب على مراتب القلوب» ص ٩٤ وهي فيما له(رضي الله عنه) في هذه الطريقة من نظم ونثر وخاصة فيما أفاده في مسألة «الوصال» وحديث «أنا سيد ولد آدم»

و «آدم ومن دونه تحت لوائي» .

و «التدبير نصف العيش» . «وإذا أحب الله عبداً ابتلاه» . «وقلب القرآن يس» .

ولم يسبقه أحد إلى هذه المسألة في بلادنا وغير ذلك مما لا أتذكره : (كل ذلك قاله الشيخ) .

ومنهم(رضي الله عنهم) «أبو عمران موسى بن عمران المارتلي» أنشدني لنفسه في شعر مجلس يخاطب نفسه ص ١٠٢ :

فأنت ابن عمران موسى المسيء ولست ابن عمران موسى الكليما

ولهذا الشيخ شأن كبير ومعرفة تامة وأدب عظيم مقبوض في عموم أحواله ، حسن البشاشة لزُواره . لنا معه مواطن عجيبة كانت همته متعلقة بالله في حفظنا وعصمتنا من الفتن والرجوع ، فقضي حاجته في ذلك وشهد لي وبشرني . وقال لي منه إلي بمحضر صاحبي (عبد الله بدر الحبشي) . كنت أتخوف عليك جداً لصغر سنك ، وعدم المعنى وفساد الزمان ، وما ظهر لي في أهل هذه الطريقة من الفساد ، وهم الذين ألزموني العزلة لما عاينت من فساد الأحوال ، فالحمد لله الذي أقر عيني بك .

ومنهم(رضي الله عنهم)«أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الطائي» وهو عمي شقيق والدي ، دخل هذه الطريق في آخر عمره وهو في عمر الثمانين ، فلازم المجاهدة ص ١١٠ .

ومنهم(رضي الله عنهم). الإخوان الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط ، وأبو العباس أحمد الإشبيليني(رضي الله عنهما) .

صاحبتهما زماناً بإشبيلية إلى عام تسعين وخمسمائة خرجا يريدان الحج ، وهو العام الذي رحلت فيه إليك «يقصد أبو العباس أحمد» . ووصلا مكة . فأما أحمد فجاور بها سنة ، وخرج إلى مصر ودخل

طريق الملامتية . وأما محمد فجاور بها خمسة أعوام ولحق بأخيه بمصر ، فأقمت معهما . وبأبي عبد الله زمانة (أي مرض) .

ولذا ظل معهما - أي الشقيقان - وقال (رضي الله عنه) فصمت معهما رمضان وخرجت إلى القدس الشريف ومشيت إلى مكة (شرفها الله تعالى) وأقمت بها ، وظل «أحمد» في خدمة أخيه . لقي شيخنا العريني وأبا عبد الله بن جنيد وجماعة من أصحابنا أراد صحبتنا ألى مكة لولا مرض أخيه ولو كان صحيحاً رحلنا بجملتنا ، حلت بمصر المسغبة والوباء الذي هلك فيه أهلها .

في ختام هذه الوريقات أحمد الله الذي جعل نظام الأنام منوطاً بالأحكام والشرائع ، ونصب أئمة الدين وعلماء اليقين لسد المفاسد والذرائع (أحمده) حمد من سقاه الله من خمر محبته شراب اليقين ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة تخرج الفؤاد من ضيق الاحتجاب إلى النور المبين ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله موضح طريق المقربين .(صلّى الله عليه وعلى آله و صحبه)الذين مشوا على طريقته وتحققوا بحقائق الدين .

(وبعد) فيقول الفقير إليه تعالى (بدوي طه علام)(غفر الله ذنوبه) وستر في الدارين عيوبه هو ووالديه وأحبائه وجميع المسلمين آمين :

هذه رسالة «روح القدس» تأليف الشيخ الإمام العارف بالله تعالى أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الأندلسي (رضي الله عنهم) ونفعنا بهم آمين أقدمها للقارىء المنصف الذي يخاف الله ربّ العالمين ، ويتقي الله في أعراض علماء المسلمين ، وليستبين الحق الواضح من الضلال المبين .

بسم الله الرّحمن الرّحيم
وبــه ثقتي

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله .

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمور بالنصح لإخوانه . والمشدد عليه في ذلك دون أهل زمانه :

محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي (وفقه الله تعالى) : إلى وليه في الله تعالى وأخيه الركن الوثيق أبي محمد بن عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس(أبقاه الله تعالى) محفوظاً . وبعون الصون والرعاية ملحوظاً .

سلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو .

وأصلّي على سيّدنا محمد على آله وسلّم تسليماً .

أما بعد يا أخي فإن النصح أولى ما تعامل به رفيقان وتسامر به صديقان .

وقلما دامت اليوم صحبة إلاَّ على مداهنة ، وقد ثبت أن النبي (ص) قال : «ما ترك الحق لعمر من صديق» وقال أويس القرني (رضي الله عنه) لرجل من مراد : يا أخا مراد إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن

فرحاً وإن علم المؤمن بحقوق الله تعالى لم يترك في ماله فضة ولا ذهباً وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقاً .

روينا عن أويس(رضي الله عنه) من طريق مخلد بن جعفر عن محمد بن حريز عن محمد بن حميد عن زافر بن سليمان عن شريك بن جابر عن الشعبي عن رجل من مراد عن أويس(رضي الله عنه) وكل إنسان يقبل النصح من غيره لا من نفسه إلاّ من وفقه الله فحينئذ يلتذ بسماع معايب النفس لا سيما إذا أرسلتها يا أخي في مجلسك مطلقة من غير تعيين . نقر لك بأن هذا هو الحق فإذا قلت لها إياك عنيت بهذا الكلام والمؤمن مرآة أخيه وقد رأيت فيك ما أوجب على أن أقول لك فيه شمخت النفس وقالت سبحان الله إنما أنا مرآة نفسك رأيت في ، ومثلي من يُقال له هذا ؟ ! لأن النفس عمياء عن عيوبها بصيرة بعيوب غيرها ، فأدى نصحك لها في أمر واحد إلى ارتكاب محظورات كثيرة من الكذب والنفاق وقل يا وليي أن تجد اليوم للناصح من صديق ، ولقد قلت في ذلك شعراً :

لما لزمت البحث والتحقيقا لم يتركا في الأنام صديقا
ولعمري والله ما كذبت ولا قلت إلاّ ما وجدت

ويعلم ولي الله (أبقاه الله تعالى) إني ما عاشرته أيام إقامتي عنده إلاّ بالمناصحة حتى ذكر لي يوماً على العشاء وقال لي مواجهة إنك كثير الانتقاد واحتج علي بمسألة إبراهيم بن أدهم ثم استشهد بقول القائل .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

فاعربت له (وفقه الله)أن ذلك النصيب مقام من أحبك لنفسه وأما من أحبك لك فلا سبيل ولما كان حب الله إيانا لنا لا لنفسه نبهنا على معايبنا وأظهر لنا نقائصنا ودلنا على مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال وأوضح لنا مناهجها ورفع لنا معارجها ولما أحببناه لأنفسنا ولم نتمكن في الحقيقة أن نحبه له تعالى عن ذلك رضينا بما يصدر منه مما لا

يـوافق أغراضنـا وتمجه أنفسنـا وتكرهـه طباعنـا والسعيد هـو الذي رضىٰ بـذلك منـه تعالى ، ومن سـواه يضجر ويسخط فنسـأل الله تعالى العـافية في ذلك لنا وللمسلمين وقد فزت يـا أخي جعلني الله وإياك من الفـائزين في زمـانك هـذا بخـلال لم يقـدر أن أراهـا من غيـرك ، منهـا معـرفتـك بمـرتبـة العلم وأهله وعـدم تعـريجـك على الكـرامـات والأحـوال ومنهـا انقيادك للحق وتواضعك له ونزولك إليـه عند من وجـدته سـواء كان ممن تلحـظه العيون أم لا يؤبـه لـه ولم تلحظ منـزلتـك الـدنيـويـة من تعـظيم الناس لك وتقبيلهم يدك وإتيان السلاطين إلى بابك وهذا غـاية الإنصـاف ثبتـك الله ومنها قـولك فيمـا لا تعلم لا أعلم وفيما تعلم أحب أن أسمعـه من غيري فقد حزت والله يا وليي هـذه الخصال التي تتـطاير دونهـا رقاب الرجال والمقـام الذي لا تغيـره الأحوال ولا تـزيده حسنـاً ووضاءة رواتب الأعمـال ثم بحثـك الـذي لم أره من غيـرك في معـرفـة الأنـام والـزمـان واعتقـادك أنه من فـروض الأعيان من أعجب مـا سمعته الأذان وتسـامرت به الخلان وسـارت به الـركبان ثم مـا وهبك الله من الصـولة والقـوة على الفقهاء بدلائل المكارم والفتوة الجارية مع براهيم النبوة وأمـا أهل زمـانك اليـوم يا وليي فكمـا قال الحكيم أبـو عبـد الله محمـد بن علي التـرمـذي (رحمه الله) : ضعف ظاهـر ودعوى عـريضة . فـأول مـا وصلت إلى هـذه البـلاد سألت عن أهـل هذه الـطريقـة المثلى عسىٰ أن أجـد منهم نفحـة الـرفيق الأعلىٰ فحملت إلى جماعـة جمعتهم خانقـاه عاليـة البناء واسعـة الفنـاء فنـظرت إلى مغـزاهم المـطلوب ومنحـاهم الـمرغـوب تنـظيف مـرقعاتهم بـل مشهـراتهم وتـرجيـل لحـاهم غيـر أنهم يـدعـون أن أهـل المغـرب أهل حقيقـة لا طريقـة وهم أهل طـريقـة لا حقيقـة وكفى بهـذا الكلام فساداً إذ لا وصـول إلى حقيقة إلّا بعـد تحصيل الـطريقة وقـد قال الإمام المقدم والصدر المبرز أبـو سليمان الـداراني (رحمة الله عليه) وإنما حرموا الوصول إلى الحقيقة بتضييعهم الأصول وهي الطريقة وقـد شهدوا على أنفسهم بفـراغهم من الحقيقة فهي شهـادتهم بعينهـا أنهم على غيـر

الطريقة وهاتان جهالتان منهم وهم لا يشعرون فالزمان يا وليي اليوم شديد شيطانه مريد وجباره عنيد علماء سوء يطلبون ما يأكلون وأمراء جور يحكمون بما لا يعلمون وصوفية صوف بأغراض الدنيا موشحون عظمت الدنيا في قلوبهم فلا يرون فوقها مطلباً وصغر الحق في أنفسهم فاعجلوا عنه هرباً حافظوا على السجادات والمرقعات والمشهرات والعكاكز وأظهروا السبحات المزينة كالعجائز طغام أطفال صبيان الأحلام لا علم عن الحرام يردهم ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصدهم اتخذوا ظاهر الدين شركاً للحطام ولازموا الخوانق والرباطات رغبة فيما يأتي إليها من حلال وحرام وسعوا أردانهم وسمنوا أبوانهم فوالله ما أراهم إلا كما حدثني غير واحد عن القاضي أبي بكر بن العربي المعافري قال حدثني المطهر سعد بن عبد الله الأصبهاني قال حدثنا أحمد بن عبد الله قال حدثنا محمد بن أحمد بن علي قال حدثنا أحمد بن الهيثم قال حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا بشر بن مطر بن حكيم بن دينار القطيعي ، قال : سمعت عمرو بن دينار وكيل آل الزبير يحدث مالك بن دينار قال حدثني شيخ من الأنصار بحديث عن سالم مولى أبي حذيفة قال قال رسول الله (ص) ليجائن بأقوام يوم القيامة معهم من الحسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء ، ثم قذفهم في النار فقال سالم : يا رسول الله بأبي أنت وأمي جل لنا هؤلاء القوم حتى نعرفهم فوالذي بعثك بالحق إني أتخوف أن أكون منهم قال يا سالم «إما أنهم كانوا يصومون ويصلون» .

وفي حديث آخر : وكانوا يأخذون وهنا من الليل ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام وفي رواية من طريق آخر : شيء من الدنيا وثبوا عليه فأدحض الله عز وجل أعمالهم فقال مالك بن دينار هذا والله النفاق فأخذ المعلي بن الزياد بلحيته فقال صدقت يا أبا الخير والله يا وليي لو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها وفي صفوفهم لا يقيمونها يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه في الصف قدر ما يدخل فيه ألف شيطان ثم

إذا جئت أن تسد ذلك الخلل تراهم قد قطبوا وجوههم فإن غفلت ووطئت سجادة أحدهم لكمك لكمة حيث جاءت منك قد يكون فيها حتفك وهذه واشباهها هي الطريقة التي أهل زمانك عليها ويرحم الله أبا القاسم القشيري حيث أدرك من تحلى بحلية القوم في ظاهره وتعرى عنهم في باطنه فأنشد فيه :

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

وهذا الذي قد اشترك معهم في الزي الظاهر وأما اليوم فلا خيام ولا نساء بإجماع من القوم وإن الموت الأخضر عندهم طرح الرقاع بعضها على بعض وذلك شعارهم (رضي الله عنهم) فقام هؤلاء فقالوا إنما لنا لبس مرقعة خاصة ولم يلحظوا ما أريد بها فتأنقوا في الثياب المطرحة والأعلام المشهرة وخاطوها على وزن معلوم وترتيب منظوم تساوي مالاً عظيماً وانسدوا عليها ثياباً وسموها مرقعة فرحم الله سيد هذه الطريقة أبا القاسم الجنيد حيث أنشد لما رأى فساد الحال :

أهل التصوف قد مضوا ... صار التصوف مخرقة
صار التصوف ركوة ... وسجادة ومذلقة
صار التصوف صيحة ... وتواجداً ومطبقة
كذبتك نفسك ، ليس ذي ... سنن الطريق الملحقة

والله ما أعلم أهل الطريق كذا وما كان الطريق إلاَّ بالقعود في مرابض الكلاب مجاهدة وتحمل الأذى وكفه رياضه ، والرحمة والشفقة والعطف على الفقراء والمسلمين كافة تحقيقاً ومعرفة أين هم من صفة أهل الله كما نعتهم الطائفة العالية (رضى الله عنهم) على ما حدثنا أبو محمد بن يحيى قال حدثنا أبو بكر بن أبي منصور وحدثنا أبو الفضل أحمد قال حدثنا أحمد بن عبد الله قال حدثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن مقسم قال حدثنا عباس بن يوسف قال حدثني محمد بن عبد الملك قال قال عبد الباري قلت لذي النون المصري (رحمه الله) صف لي الأبدال قال

إنك تسألني عن دياجي الظلم لأكشف لك عنها يا عبد الباري
هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم لمعرفتهم بجلاله
فهم حجج الله تعالى على خلقه ألبسهم الله النور الساطع من محبته
ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته وأقامهم مقام الأبطال لإرادته
وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته وطهر أبدانهم بمراقبته وطيبهم بطيب
أهل معاملته وكساهم حللاً من نسج مودته ووضع على رؤوسهم تيجان
مسرته ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب فهي معلقة بمواصلته فهممهم
إليه سائرة وأعينهم بالغيب إليه ناظرة أقدامهم على باب النظر من قربته
وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته ثم قال عزّ وجلّ لهم إن أتاكم
عليل من فقدي فداووه أو مريض من فرقي فعالجوه أو خائف مني فأمنوه أو
آمن مني فحذروه أو راغب في مواصلتي فمنوه أو راحل نحوي فزودوه أو جبان
في متاجرتي فشجعوه أو آيس من فضلي فعدوه أو راج لاحساني فبشروه
أو حسن الظن بي فباسطوه أو محب فواطئوه أو معظم لقدري فعظموه
أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه أو مسترشد نحوي فأرشدوه إلى آخر
القصة على ما ذكرناه في كتاب البغية لنا مستوفاة فهذه أحوال العارفين
يا وليي وهكذا تكون عمارة القلوب . وأما أهل زمانك فوالله لو أطلعت
عليهم لرأيت إن نظرت إلى وجوههم عيوناً جامدة ، متحركة غير هامدة
وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوساً سامدة وإن نظرت إلى قلوبهم
رأيت قلوباً لاهية من العمارة العلوية والقدسية خالية على عروشها
خاوية آجاماً لأسود ضارية ومرابض لذئاب عاوية نسأل من الله تعالى
عند رويتهم العافية أين هم يا وليي من قوم وصفهم أبو الفيض حيث
قال إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة قيل يا أبا الفيض ما علامتهم
قال إذا خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة وأحب سقوط
المنزلة . ثم قال :

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجع
فهموا عن الملك الكريم كلامه فهماً تذل له القلوب وتخضع

فقال له بعض من كان في مجلسه من هولاء القوم يا أبا الفضل (رحمك الله) ؟ .

قال ويحك هؤلاء قوم جعلوا الركب لجباههم وساداً والتراب لوجوههم مهاداً هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج وحركهم بالأدلاج فوضعوه على أفئدتهم فانسرحت وضموه إلى صدورهم فانشرحت وتصدعت هممهم به فكدحت فجعلوه لظلمتهم سراجاً ولسبيلهم منهاجاً ولحجتهم إيلاجاً أفلاجاً يفرح الناس وهم يحزنون وينام الناس ويسهرون ويفطر الناس ويصومون ويأمن الناس ويخافون فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون يشمرون يبادرون من الفوت ويستعدون للموت إلى آخر القصة كما حدثنا أبو الحسن علي بن موسى سنة أربع وتسعين وخمسمائة قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن أحمد قال حدثنا أحمد بن عبد الله قال حدثنا أبي قال حدثنا أحمد بن محمد بن مصقلة قال حدثنا أبو عثمان الخياط عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري وهو كما علمت يا وليي من ساداتنا فهذا وصفه لأولياء الله وبهذا حلاهم وهكذا شاهدهم ورآهم ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان ولا يستحيي في ذلك من الرحمن لا يعرف شروط السنة والفرائض ولا يصلح أن يكون خديماً في المراحض . ومع هذا يا وليي فهم والله الصدف الذي يخفي الدرر والسياج على الروضة ذات الزهر يدخل بينهم الصادق والصديق فيجهل والعارف المتمكن فيترك ويهمل فإنه يحمل على ما هم عليه لاشتراكهم في المسكن وما بينه وبينهم معاملة في شيء ولقد وقع بيدي منهم بمصر في الخانقاه بالقاهرة كهل يقرب أن يكون رجيلاً لا بأس به ففرحت به لما لم أجد غيره واجتمعت مع شيخ يدعى فيهم شيخ الشيوخ بازبيل (هكذا قال لي بنفسه) ورأيته يعطي النصف من نفسه للمتكلم معه (رضي الله عنه) فزعم أن ليس لله في المغرب من يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه فأراد وليك أن لا

يشافهه بخطاب ولا يتعرض إليه ثم رأيت ذلك قاصمة الظهر وقارعة الدهر فابدينا له يسيراً مما وهبك الله من الأسرار ثم اعقبناه ببعض أحوال سيدنا أبي مدين خلاصة الأبرار فبقي مبهوتاً بما سمع وقال ما تخيلت أن يكون مثل هذا في بلاد المغرب ثم ألقى عليه بعض أصحابنا مسألة من الحقائق الإلهية المتوجهة على إيجاد جهنم فوالله ما زاد على أن قال لا أدري شيئاً وانصف من نفسه واعترف بنقصه وهدأت شقاشقه وطفئت بوارقه فقلت له هذا حالك معي وأنا انقص حظاً وأحقر قدراً من أن أذكر فيهم أو أنسب إليهم فكيف بك لو لاحظت الكبراء والسادة النبلاء الكائنين بالمغرب الغرباء فسلم واستسلم وحمدت الله على ما ألهم وعلم وأما أهل السماع والوجد في هذه البلاد فقد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لا تسمع إلاّ من يقول لك رأيت الحق وقال لي وفعل وصنع ثم تطالبه بحقيقة منها أو سر استفادة في شطحه فلا تجد إلاّ لذة نفسانية وشهوة شيطانية يصرخ على لسانه الشيطان فيصعق ما دام المغرور والآخر بشعره ينهق فلا أشبههم إلاّ براعي غنم ينعق بغنمه فتقبل وتدبر بنعيقه ولا تدري ماذا ولا لماذا فواجب على كل محقق في هذا الزمان فمن ينظر ويقتدي به المريد الضعيف أن لا يقول بالسماع أصلاً ويقطعه قولاً فصلاً وقد أوضحنا مقامه لأهل هذه البلاد وما يتطرق إليه من الفساد واحتجوا علينا بأحوال من سمع من الشيوخ في الرسالة وغيرها فأوضحنا مبهمها واعربنا معجمها فأقروا بنقصه في مراتب الوجود فمنهم من عدل عنه ومنهم من قام فيه على معرفته بنقصه وليعلم وليي (وفقه الله تعالى) أني لما قررت بالحرم الشريف المكي ما ذكرته لك في حق المنتسبين للصوفية وفي أحوالهم ثقل ذلك على شخص فقال ما دعاه إلى هذا والإعراض عن هذا كان أحسن وما أشبه هذا الكلام فزاد عندي اعتراضه تقوية أن هذا هو الحق لكونه ثقل عليه ولقد عمي هذا القائل عن الأصول التي استندت إليها في فعل هذا وهو يسلمها وقد قرعت سمعه غير مرة ولم يعتب عليهم بل

استحسن ذلك فلما وقع ذلك الذم في أهل زمانه رأى أن ذلك فضولاً لكونه في ذلك الزمان فخاف أن يتطرق إليه الذم في نفسه فحزن ولو أنصف لبحث عن نفسه .

وأما الأصول التي استندت إليه في ذلك فكثيرة جداً :

روينا عن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)أنه قال يوم فتح مكة في القرن الفاضل لما فقد عقد من عنق بعض أهله تأوه وقال ارتفعت الأمانة اليوم من بين الناس وحكم بتلك النازلة الواحدة على الزمان (ذكره في السير في غزوة فتح مكة) والأصل الآخر بنته عائشة (رضي الله عنها) لما نظرت لزمانها وأهله وما هم فيه من البخل والحرام تأوهت وقالت يرحم الله لبيداً حيث يقول :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ثم قالت كيف به لو أدرك زماننا قدمت زمانها وأهله وقد روينا عن غير واحد عن ابن القشيري وعن ابن أنمي كلاهما عن القشيري (رحمه الله)أنه قال في رسالته ذم أهل زمانه وقد سمعها هذا المعترض علي واستحسن ذلك منه ثم قال لم يبق في زماننا من أهل الطريقة إلا أثرهم :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة في الطريقة لا بل أندرست الطريقة وذمهم بأشد الذم في أول الرسالة ولتداولها بين أيدي الناس أضربنا عن حكاية قوله . وروينا عن أبي حامد وغيره عن أبي المغيث في كتابه المنقطعين له من حديث أبي المهلب قال مررت بالساحل فرأيت شاباً قد احتفر لنفسه حفرة في الرمل فسألته فتأوه وقال يذم أهل زمانه توعرت السبل وقل السالكون لها قد افترشوا الرخص ومهدوا الزلل واعتلوا بزلل الماضين . (إلى مثل هذا الكلام) ثم قام فمشى على الماء حتى غاب عني أرأيت قط هذا يتفق لمن تكلم فيما لا يعنيه . وروينا عن غير

واحـد من حديث عبـد الـرحمن بن الحسن عن هـارون عن أبي معـاويـة عن الأعمش عن أبي صـالـح قـال لمـا قـدم أهـل اليمن زمـان أبي بكـر وسمعـوا القرآن جعلوا يبكـون فقال أبـو بكر (رضي الله عنـه) هكذا كنـا ثم قست القلوب .

وثبت أيضـاً تقـريـع النبي (ص) لأصحـابـه المعـذبين بمكـة على إسـلامهم ، ومنهم خباب (رضي الله عنه) وقاسى بـلاء شـديـداً من أجـل إسـلامه قـال (رضي الله عنه) شكـونـا إلى النبي (ص) مـا نلقـاه من البـلاء وقلنـا ألا تدعـو الله لنا ألا تستنصـر لنا فجلس محمـراً وجهه ثم قال: «والله من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيوضع المنشـار على رأسه فيشق بـاثنتين ما يصـرفه عن دينـه شيء ويمشط بأمشـاط الحديـد ما بين عصب ولحم مـا يصـرفه عن دينـه شيء». يا أيهـا المعترض هـذه الأصـول التي استنـدت إليهـا في ذم أهـل وقتي لا حشـرني الله معهم ولا أمـاتني على حـالتهم هلا كنت ناصري في قولي هـذا وتعرف أنـه الحق وإن اليوم الحـال على مـا وصفناه وكنت تـأتيني باكيـاً على نفسك وأنـا أيضـاً كـذلـك عسى الله يرحمنا ألا رضيت لنفسك أن تكون منافقاً مـداهناً وللمـداهنين إمامـاً والله لا أرضى بهذه الحالـة فتب إلى الله وارجع إليـه فإنـه يرجـع إليك وتعـال نقم مـأتمـاً ومنـاحـة على التقصيـر في العمـر اليسيـر وعلى الاشتغـال بالترهات والفرح بالخزعبلات بل أضل أهل الأباطيل ونقـول والله إنه كـل من ثقل عليه هذا الكلام فهـو بتلك الصفة التي وصفنـا . ولهذا قلق ولـو كان بريئاً منها سكن كما سكن عند ذكـرنا ذم السـراق والقطاع وأشبـاههم ولما كان لـه في هؤلاء مدخـل فر إلى الاعتـراض ليزداد من الله بعـداً في رده الحق وليس اعتراضه علينـا في هذا بـأول دفع جـرى على طلل فإنـه لم يـزل أبداً كـل من تكلم في معايب النفس وأحـوالها ويبـدي نقائصهـا ويـذم شأنهـا على التعيين وعلى غير التعيين في كـل زمـان مـذمـومـاً في زمـانه لعـدم موافقـة أغراض النفـوس فإذا انقـرض زمانـه ومـات ونشـأت طائفة أخرى بعده عند ذلك يعرف قدر مـا جاء بـه ويُقال قـال فلان(رضي

الله عنه) هكذا كان الناس ثم اعرف ولي (بقاه الله تعالى) فيما طرأ بيني وبين نفسي رأيت في هذه البلاد مسجونة مقهورة فإني كما يعلمه وليي ممن يقول بوجوبها ولا يصح عندي أبداً موتها عن صفاتها لمعرفتي بحقائقها ومكانها ولما رأيت الله تعالى قد فتح إلى قلبي باب الحكمة وأجرى فيه بحارها وسبح سري في سبحها حتى إني والله لأنظر إلى معظم البحر إذا اشتدت عليه الرياح الزعازع فعلا موجه وارتفع دربه ثم انظر إلى تموج بحر المعارف والأسرار في صدري فأجد معظم ذلك البحر بما وصفناه من تلاطم الأمواج واشتداد الرياح ساكناً لا حراك به عند تموج بحر الحلم في صدري واصطفاقه لا سيما في مكة المشرفة فداخلني من ذلك رعب شديد وجزع عظيم وخوف متلف فعزمت على قطع الميعاد وأن لا أقعد للناس فأمرت بالقعود والنصيحة للخلق قسراً وحتماً واجباً فقعدت رفيع الكلام مصلت الحسام ثم أخلو بنفسي حيث مسكني فآذن المواهب بالحال التي أنا عليها وفيها فلا أجد بينهما نسب يربط ولا سبب يضبط فخفت والله يا وليي مكر الله بي واستدراجه إياي فخلوت بنفسي وقد داخلني من ذلك ما لا يعلمه إلّا الله تعالى ولا أجد طريقاً أدخل منه لتمحيص نفسي وقد انسدت على المسالك بفنون الحقائق الأول والمعارف إلى أن لطف الله بي برؤيا رأيتها وجدت بها الظفر على نفسي وإقامة الوزن عليها وذلك أني رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فلما حصلت فيها ولم أكن رأيت ناراً ولا حشراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة وجدت في نفسي راحة عظيمة لا يقدر قدرها وسرورها وحمدت الله تعالى فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال وأن نفسي أدعت فوق حالها من جهة ما أعطاها الله من العلم ولو كانت متحققة بالحق تحققاً عقلياً مقدساً إلاهياً يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ولا عقلت الراحة وأشغلها التنزه في جلال الله عن النظر إلى راحتها والتفاتها إلى نجاتها من أهوال الوعيد فأرادت تقيم على الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها

فلم أسمع لها وقامت حجتي عليها وآذنتها بقصورها وعظيم دعواها في شيء هي دونه وحمدت الله الذي أظفرني بها فقلت لها يا نفس وعزة من جبلك على المخالفة وجعلك محلاً لكل وصف مذموم لا أتركنك على دعواك حتى أعرض أحوالك كلها على كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) فإن وافقت ذلك ولم أجد منك خللاً سلمت لك فيما أردت أن تقيمي عليّ من سلطانك والله تعالى يقول : **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): كن أنت المحدث إذا سمعته يقول : **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** إن وجدتك دون ذلك فأنا ألطف بك وأرحمك بأن أمشي بك على أحوال أهل الصفة الذين تنتسبين إليهم وعلى أحوال الصفوة من الصحابة الأعلام فيهم فإن خرجت مع واحد منهم في حال ما فأنا أنزل معك وأرضى عنك وإن لم أجد مشيت بك على تابعيهم على نحو ما فعلت بك مع الصحابة فإن قصرت عن أحوالهم مشيت بك على تابعي تابعيهم وتابعي تابعي تابعيهم فإما أن تقفي مع واحد منهم وإما أن تقصري عن شأوهم فالنار أولى بك واجعل حكمتك ومعرفتك كدرهم زائف عند صيرفي ناقد فقالت لي (وقالت بعض حق) أما النبي (ص) فلا أعرض حالي مع حاله أدباً معه فإن فلك النبوة ليس لنا فيه قدم ولا تقوم لك به على حجة فإنه البحر الذي يغترف منه الخاص والعام فإن شددت علي به رخصت أنا على نفسي به وتتعارض الحجج وكل سنة وأنا أسقط لك الدعوى من أول وهلة وأهجم على الرخص واتخذها سنة كما وردت واقنع بالنجاة من النار خاصة واحرمك التنزل في المنازل العلا فيما بقي من عمرك وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم الذي لا يدرك قعره إذ ليس له قعر فيدرك ولا ساحل فيبلغ فيه هلك الهالكون ونجا المفلحون قال الله تعالى : **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾** تالله لو عرضت الملائكة والنبيون والمرسلون أجمعون أحوالهم على آية من القرآن على حد ما يعلمه الله من أسرار ما أودع فيها من

الغيوب لبقي الكل إلى جانبها كـلا شيء عندهـا لقـد في أول آيـة منه : وهي قوله تعالى : ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ يتيـه العالـم أسفله وأعـلاه لا يعـرف طريقـه أبداً ولا يفي أحـد بحقيقتها فـإن في الغيب أموراً لـو بـدا منها لمحة بارق لأعلى عالم مشاهدة من العالم وأقواه إيمـاناً لتـرددوا فيها واتهمـوا إيمـانهم فهم جهلوا الأسمـاء فمـا ظنـك بمـا تنـطوي عليـه المسميات من المعاني وذلك لعلو الأمر عن مـراتب العقول وانفـرد الحق بـالخلق والإيجـاد دون الخلق ولهـذا قـال الله تعـالى : ﴿ألا يعلم من خلق﴾ ولما لم يكن لنا علم فما أعطانا فمنة منـه وعلمه لا يتنـاهى فليس بـانصـاف منـك أن تعـرض حـالي على كتـاب الله الأقـوى الأقهـر ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة من المؤمنين فخذ معي في مـراتب الولايـة وأنـا المنقادة السميعـة السهلة المطيعـة أرجـع معـك علي بـالـلائمـة إن قصـدت وأنصفـك من نفسي أن أحصـرت ولا تبقي في محـل الغبن والخسران فإنـك أنا ، كمـا أنـا أنت ، فلست غيري ولست غيـرك ، وما لك على حجة وقـد أعطيت يـد الانقياد في التمحيص والاختيار فتعجبت والله من نفس تنقاد لهذا المقدار فتلوت كلامهـا وما جـاءت به فـوجدتهـا قـد انطوت على مكـر وخداع وأمر هائـل لا يستـطاع وقـد شـابت الأمـر بالشرك وأبطنت الحرب في السلم فتعاميت عنها في ذلك .

وحررت نفسي معها في المناظرة ولم انتق لهـا من أحوالهم إلاّ مـا لم يخـطر لها على بـال ولا اتصفت بـه في حـال وعدلت عن كـل حـال رأيت لهـا فيـه بعض اشتـراك ولـو علمت أني أجـد وليـاً من أوليـاء الله تعـالى لم يمتز عنهـا بحال ألبتـة لم أناظـرهـا بـأحـوالهم ولا أخـذت من مناقضتها ابتـداء في سهولـة إنقيادهـا وإظهار نصيحتهـا وتركتهـا بتعرضهـا لمعرفتي بنقصها وانها تعجز عن ذلـك فقلت لها هـاتي اخرجي أسنى مـا تدعينه وأعلى مـا تحفظينـه وأنا أعـرض أولاً حال أهـل الصفة ومـا كانـوا عليـه مجملاً من غيـر تفصيلهم بأسمـائهم رغبـة في التخلص في أسـرع حال قالت قل قلت لها حدثنا محمد بن عيسون قال حدثنا أبو بكر بن عبد الله

قال حدثنا سعيد قال حدثنا أبو الفضل قال حدثنا أحمد بن عبد الله قال حدثنا أبو بكر بن مالك قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال حدثنا فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم أسفل من ذلك فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته والله ما اجتمع لهم ثوبان ولا حضر لهم من الأطعمة لونان ناشدتك الله يا نفس هل كنت قط افقر منك الآن في حرم الله تعالى فقالت لا فقلت لها الحمد لله ترى لك قميصاً وأزاراً وسراويل وجبة وعمامة ونعلاً وبردة وخبزاً نقياً ولحماً طرياً وحلواء ويخدمك الرؤساء ويمتثل أمرك تقولي أفعل فيفعل تقولي لا تفعل فلا يفعل أين أنت منهم ، و- أي أهل الصفة - ماتوا والله بحوائجهم في صدورهم على ما رويناه من حديث سليمان بن أحمد عن هارون بن ملول عن أبي عبد الرحمن المقبري عن سعيد بن أبي أيوب عن معروف بن سويد الحزامي عن أبي عسانة المعافري عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي (ص) يقول فيهم فقراء المهاجرين الذين تتقي بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطاع لها قضاء أخبر بهذا عن الله عنهم ، بالله يا نفس حصلت في هذا المقام قالت لا والله قلت لها فلست منهم ، استحيي من الله وارجعي على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء فقالت علي بغيرهم فليس لي هنا قدم قلت لها فهذا عمّار بن ياسر روينا من حديث أحمد بن جعفر بسنده عن عمّار (رضي الله عنه) أنه قال وهو يسير على شط الفرات اللهم لو أعلم أن أرضى لك عني أن أتردى فأسقط فعلت ولو علمت أن أرضى لك عني أن ألقي في هذا فأغرق فيه فعلت ناشدتك الله يا نفس هل خطر لك هذا قط في رضى الله لاتبغي به بدلاً قالت لا والله فانتقل بي عن هذا قلت لها نعم هذا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) روينا بالسند المتصل إليه أنه قال ألا حبذا المكروهان الموت والفقر وأيم الله

إن هو إلاّ الغنى والفقر وما أبالي بأيهما أبتليت إن كان الغنى إن فيه للعطف وإن كان الفقر إن فيه للصبر ناشدتك الله يا نفس هل عاملت الله قط من عمرك بمعاملة أثمرت لك أن تتطعي على الله بمثل هذا وتأمني من الفتنة في الغنى والكفر في الفقر قالت النصف أما القطع فلا انتقل بي عن هذا فقد أربى عليّ قلت لها نعم هذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) روينا بالسند المتصل إليه أنه لما أسلم قال له النبي (ص) يا عمر استره قال (رضي الله عنه) قلت والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك ناشدتك الله يا نفس هل قمت لي قط في دين الله تعالى حامية عنه بأمر بمعروف تعين عليك أو نهي عن منكر في موطن دونه النفوس الحداد وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه قالت لا والله وإنما قاربت هذا المقام ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء بحيث إن غلب على ظني الأمن والعافية في دمي قلت لها فارجعي قالت نعم هات غيره قلت هذا أبو عبد الله ثوبان مولى رسول الله (ص) روينا عنه بالسند الصحيح أنه سمع النبي (ص) يقول: «من يتقبل لي واحدة تقبلت له الجنة» . قال أنا يا رسول الله قال لا تسأل أحداً شيئاً فكان (رضي الله عنه) ربما سقط الصوط من يده وهو على بعيره فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه حتى ينزل إليه ويأخذه ناشدتك الله يا نفس هل قدمت في مخاطباتك هذا الإقدام على أمر مجهول ثم لو أقدمت عليه هل كنت تفي به هذا الوفاء ولا تجنحي إلى تأويل فيه لحصولك في مقام أنت فيه بحكم التخيير قالت كل ذلك لم يكن مني قلت لها فلا مع الأحرار ولا مع الموالي فصغرت وقالت انتقل بي عن هذا قلت نعم هذا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) روينا عنه بالسند الصحيح عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كان يطعم الناس طعام الامارة ويدخل في بيته فيأكل الخبز والزيت ناشدتك الله هل فعلت هذا مع أصحابك قط آثريتهم باللطيف واستأثرت بالخشن فقالت لا والله بل كنت على أحد وجهين معهم إن لم يكن عندي طعام

غيـر ما جعلت بين أيـديهم شاركتهم فيـه وأن كان عنـدي أرق منـه أكلت وحـدي ذلك مثـل الحلو أو الخشكنان وغيـر ذلك وأقـول هـذا غـداء لين لي وألبس على نفسي بهـذه الترهـات حتى لا أتنغص به عنـد أكله وأقول هـذه الإخـوان في مقـام التـربيــة فينبغي أن لا أزرع حب الشهـوات في قلوبهم بإطعامي لهم مثل هذا ومقـامي لا يؤثر فيـه هذا الـطعام فـلا بأس بتنـاولي إيـاه فـآكله على هـذا الحـال وقـد عميت عن مـطالبـة الحق في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشـاركهم في خشونتهم لمـا أعرفـه من تأثيـر الحقائق ولا شك أن عثمان(رضي الله عنه)مـا فعل هـذا في بدايتـه فتجد عنه مندوحة وإنما فعل هذا بعد التمليك قلت لهـا بارك الله فيـك يا نفس إذ أنصفتيني قـالت الحق أحق أن يتبـع هـــات غيـره قلت لهــا نعم هـذا علي بن أبي طـالب (كرم الله وجهه) بـاب مـدينـة العلم النبـوي وصـاحب الأسرار وإمامها روينا بالسند الصحيـح عن ضرار بن ضمـرة الكندي قـال أشهـد بالله لقـد رأيت علياً في بعض مـواقفـه وقـد أرخى الليـل سـدولـه وغـارت نجومـه يتمثل في محـرابـه قـابضـاً على لحيتـه يتملمـل تملمـل السليم ويبكي بكـاء الحـزين فكأني أسمعـه الآن وهـو يقول: «يا ربنـا ـ يتضـرع إليه ـ ثم يقـول للدنيا إلى تفـررت إلى تشـوقت هيهـات هيهـات غري غيري قـد بتتك ثـلاثاً فعمـرك قصير ومجلسـك حقير وخـطرك كثير أواه من قلة الـزاد وبعد السفـر ووحشة الطريق» رويناه من حـديث نـوف البكـالي قـال رأيت علي بن أبي طـالب (كرم الله وجهه) خـرج فنـظر إلى النجـوم فقال يـا نـوف أراقـد أنـت أم رامق قلت بلى بـل رامق يـا أميـر المؤمنين فقال: «يا نوف طوبى للزاهـدين في الدنيـا الـراغبين في الآخـرة أولئـك قوم اتخـذوا الأرض بساطـاً وترابهـا فراشـاً وماءهـا طيباً والـدعـاء والقـرآن دثاراً وشعـاراً فرضـوا الدنيـا على منهاج عيسى (ع)» . يا بحوراً تحتوي عليها هذه الألفاظ الرائقة البليغـة ليس لها سـواحل نـاشدتـك الله يـا نفس هـذا علي (رضي الله عنه) على تمكنـه فيمـا تـدعينـه من المقـام والحـال قـد علم المقـام وعمله وأحكمـه ووفى الحقـائق حقهـا على أتم

الوجوه ولم يجنح إلى تلويحات الأحوال كما فعلت أنت وأكثر العارفين في زمانك الذين أنبسطوا بعد قبضهم وأنسوا بعد هيبتهم وجمعوا المال بعد ما كانوا رموا به فرجعوا فرجع عنهم فتخيلوا أنهم في الحال وهم في الفائت أنظري يا نفس تمكنه في المعارف وتبرزه في صدور المواقف وضربه بيده إلى صدره فيقول إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة . وهذا عمله في خلوته يخاطب دنياه بلسان مولاه توحيداً مكملاً وتمييزاً محققاً لم يخلط بين الحقائق ولا داخل الرقائق بعضها على بعض أحكم الحال والمقال والمقام وعلم أنها ليست بدار مقام فعاملها معاملة الراحل فعل الحكيم الحازم لم تحجبه مخاطبته لدنياه بلسان الهجر والقلا وتحسر على قلّة الزاد وبعد الطريق وذكر الوحشة بعد تحصيل الأنس وتغليطه الدارجين على منهاج من وجد شيئاً من غير شهوة فلم يعلق بقلبه كون ولم يحجبه ذلك كله عن تحققه في المشاهدة بل ذلك تمكين على تمكين حيث اعطى الموطن حقه وأنصف ربه ونفسه ودنياه وآخرته فبقي حراً في وقته آتي كل ذي حق حقه في نفسه أنشدك الله يا نفس على معرفتك القاصية ومشاهدك الدانية هل صاحبت هذا الحال استصحاب هذا الإمام ؟

قالت لا والله إنما هي بوارق تلمع وأهلة تطلع في أوقات دون أوقات والغالب الشتات بل ندعي ومن رأيت من المشيخة التصرف فيها والأخذ من طيباتها من جهة حقائق الإيجاد السلبي والاستخلاف الذي صح لي وهو نقص في الحكمة حيث لم أكن مثل علي (رضي الله عنه) بحكم الموطن والله مالي شبه إلاّ بمن غاط في المسجد وصلّى في المرحاض وهكذا كل من وسع على نفسه في الدنيا من عال ودون فالكل والله تافه وفي العماية تائه ﴿**إنا لله وإنّا إليه راجعون**﴾ لولا أنّي أريد أن أقف على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة فقد رماني والله هذا الإمام بداهية ما أريد لها ناهية وقاصمة ما أرى لها عاصمة وقد أسلمت لبرهان العلم واستسلمت

لسلطان الحكم ومن مثل علي وهذا مقامه ومن يعادله وهذا كلامه لو لم ينبه لغفلتنا عن شرف منزلته إلاّ بسكوت الحصىٰ في كفه لكان ذلك تنبيهاً لكل قلب نبيه ، فياسوء ماكنت فيه . قالت : جزاك الله عني خيراً زدني زادك الله حكمة وإيماناً وحفاظاً وبياناً قلت لها نعم هذا الذي بشرت غير ما مرة أنك في مقامه : أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) روينا بالسند الصحيح عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) خرج حين توفي رسول الله (ص) وعمر يكلم الناس فقال أجلس يا عمر فأبىٰ عمر أن يجلس فقال أجلس يا عمر فتشهد أبو بكر ثم قال أما بعد فمن كان يعبد محمداً (ص) فإن محمداً قد مات ومن كان منكم يعبد الله عزّ وجلّ فإن الله حيّ لا يموت ثم تلا قوله تعالى : ﴿**وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ الآية فسكن جاسهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ناشدتك الله يا نفس هل حصلت بالسر الذي تدعينه : إنه قد حصل لك من الحق حالاً ومقاماً من تعظيم الله ما علمت به ، تعظيم من عظمة الله من جهة تعظيم الله إياه ثم وفيته حقه في ذلك بـ ـ كل شيء هالك إلاّ وجهه ـ من أن يسقط باستيلاء سلطان عظمة الله من قبلك عظمة خير العالمين إلى من دونه من أهل التعظيم مقاماً مستصحباً قالت لا والله يا وليي إنما أنا بين فناء وبقاء وتلاش وانتعاش وإقبال وإدبار ووصول ورجوع وما كنت فهمت قط هذا من هذا الكلام والذي خرج من فم الصديق حتى نبهتني عليه ولا سمعته من أحد من أشياخنا ولا رأيته ، على أن لنا بحثاً وأسراراً في الصحابة وتعظيمهم ومكانتهم ما سبقت إليها ولا رأيت أحداً ممن لقيته من أصحابنا عثر على ذلك ، إلاّ أنهم يجمحون عليه ويحومون حوله ولم يجدوا لتحصيله منفذاً وإنما هو وهب المغي لا يوصل إليه بعمل وهم يطلبونه بالإستعداد والمجاهدة . ثم قالت انتقل بي عن هذا المقام فقد قصم ظهري قلت لها نعم هذا سلمان الفارسي (رضي الله عنه) دونك في

النسب الطيني وإمامك في النسب الديني روينا بالسند المتصل عن رجل من أشجع قال سمع الناس بالمدائن أن سلمان كان في المسجد فأتوه فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع إليه نحو من الألف قال فقام فجعل يقول أجلسوا أجلسوا فلما جلسوا افتتح سورة يوسف يقرؤها قال فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقي نحو من مائة فغضب وقال: الزخرف من القول أردتم قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم . ناشدتك الله يا نفس فهذا مجلس حق فاصدقيني هل سمعت قط كتاب الله يتلىٰ فلم تهتدي فلما أنشد شعراً اهتززت وجننت وأخذك الحال فقالت والله ذلك ديني ودأبي أبداً وأزيدك والله ما هو انحس من هذا مما أنا عليه إني أقرأ القرآن ويدركني العياء وأقول لك والله لا أقدر على شيء وقد ضعفت وكل خاطري فتجيبني إلى ذلك وتترك المصحف من يدك أو التلاوة من لسانك فما تليت أن نبهتك على مقطوعة من كلامك أو كلام غيرك في أي فن كانت فتفتح فاك بها وتنشدها وتترنم فيها وترتلها مترسلاً على طريقة تستحسنها نشيطاً طيب النفس ما بك من كسل ولا عياء فلو كان ذلك الكسل والعياء حقيقة مني لاستصحبك وإنما ثقل على القرآن وكنت اجعلك في تلاوته تحدر ولا ترتل عسى تستريح وكذلك في أوراد العبادات التي يستحب التثبت فيها وذلك كله خديعة مني بك ترى هكذا حالة المؤمن لا والله بل كلام الله للمؤمن ألذ وأشوق إلى سماعه من الظمآن للماء الزلال﴿**فإنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ على نقص الإيمان بل والله على ذهابه يا شؤم نفسي ويا حسرتي ويا أسفي كم مرة والله سمعت آية من كلام الله فثقلت علي ومججتها وكم والله رنة شعر سمعتها فاستعذبتها أخاف الله يا وليي على نفسي وعلى من هو مثلي أن ينقل اسمه من ديوان المؤمنين إلى ديوان من قال فيهم الحق جلّ وعلا ﴿**وإذا ذكر الله وحده أشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**﴾ وقد اتصفت بهذا يقول القول زخرف القول وغروره فأهتز وأقوم وأقول لك شاباش هذا والله حسن فأقسم بالله كاذباً ولا يزال الملعون من شيطان يرقصني كما

يفعل صاحب القرد بقرده فإذا أخذ حاجته مني صفعني صفعة فاضجعني فيقوم من قل فلاحه فيغطيني برداء حتى يخلي سبيلي وأقوم واهنى وقد عزاني الملأ الأعلىٰ في ديني وفيما مضى من عقلي فإذا كان آخر الليل أنام والجماعة السوء مثلي وقد تعبنا من كثرة ما رقصنا فلا نلحق ننام إلاّ والصبح قد قام فنقوم نتوضأ أقلّ ما ينطلق عليه اسم الوضوء ثم نجيء إلى المسجد هذا إذا وفقت وإلاّ فالأغلب على من هذه حالته أن يصلي في داره بأنا أعطيناك الكوثر وسورة الفاتحة كيف ما كانت والقنوت ليس بواجب فاتركه وانقرها مخففة جداً ثم اضطجع لاستريح هيهات والله ما كانت طريق الله هكذا ، وإن كنت موفقاً أكثر من غيري توضأت وخرجت إلى المسجد وإذا دخلت فيقال لي قد صلّى الناس فلا أجد لذلك حزناً ولا أكترث بل أقيم الصلاة وأُصلّي وكأنه ما فاتني شيء إلاّ لا هي القلب مسروراً وأقول بلسان الحال قد حصل لي أجر الجماعة بقصدي وأراحني الله من تطويل الإمام وإن أدركت الصلاة مع الإمام فإنا في تلك الصلاة على أحد وجهين إذا كنت مستريح القلب من كل شيء أما خاضر في ليلتي البارحة وحسنها ما كان أحسن ذلك القوال وشعره واقضي صلاتي كلها في هذا حتى لا أدري ما صلّى الإمام ولا بما صلّى وإنما رأيت الناس يفعلون شيئاً ففعلت مثلهم ركعوا فركعت وسجدوا فسجدت ووقفوا فوقفت وجلسوا فجلست أو يكون النوم قد أخذ مني وهي الحالة الثانية فأترقب عند ذلك فراغ الإمام وتثقل على القراءة وأغتاب الإمام في نفسي وأمقته وأقول ما أثقله قد أفتتح سورة الحشر أو الواقعة هلا كان قنع بالانفطار والفجر والنبي (ص) قد أمرنا بالتخفيف هذا خلاف السنة ونحو قل وتهلل كل ذلك لغير الله أما تستحيي يا نفس من الله وقد وقعت البارحة مسخرة للشيطان وملعبة له ورقبتك مصفعة له وناصيتك بيده وأنت في هذا كله تلتذين ثم الداهية العظمىٰ والطامة الكبرى والداء العضال والمصيبة الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة إنّي أقول في تلك الحالة كلها إنّي كنت مع الله وفي الله وبالله قمت وفي الله شطحت وإلى الله

وصلت وقلت لله وقال لي الله ويعتب أولائك الغمر الجهال مثله فيقول لم لم تسألني إذا رجعت من حالي ، ولو سئل لافتضح ولو فرضت أنه أجاب فقد يجيب الكاذب عما يسأل عنه مثل هذا ويؤيده الشيطان بخيالات ينصبها له ويبديها في سره فيعبر عنها قال الله تعالى : ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾ فهذا ولي الشيطان ينطق بلسانه وهو مطيع له فانتظم في أهل الشرك فناهيك من مجلس يحوي أو يضم المشركين وأولياء الشياطين . أخبرني شيخي ـ وكان من أهل الكشف والوجود ـ عن رجل أعمى البصر من الصالحين حضر مبيتاً في سماع فقال الأعمى هذا إبليس قد دخل على صورة معزى يشم واحداً واحداً .

قال الشيخ وقعد الأعمى ينعت الجماعة الأول فالأول على التتابع كما هم عليه من اللباس والصورة وهو يقول ترى الملعون يمشي عليهم ناظراً إليهم حتى قال تراه قد ثبت عند واحد عليه عباءة حمراء وعمامة واحرام التفتوا عليه قال فالتفتنا فرأيناه يستجلب الحال فقال الأعمى أرى الملعون قد وقف عند هذا الرجل ثم قال تراه يريد أن ينطحه بقرنه فإذا ذلك الرجل قد صاح صيحة وغلب عليه لحال وقام يشطح فقام أهل المجلس لقيامه وهو بهذه المثابة . ما أحسن قول الله عزّ وجلّ إذ يقول : ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**﴾ فناهيك من خصلة لم يرضها لنبيه وقال : ﴿**إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين**﴾ بارك الله فيك يا نفس أقررت بالحق وخضعت له فقالت الحق أحق أن يتبع . صدق والله سلمان الفارسي (رضي الله عنه) ورضي الله عن أبي مدين حيث قال لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد . هذا مقام المريد فما ظنك بالعارف هل يعرج على كلام غير كلام سيده وكل من سمع من الشيوخ فهو على أحد أمرين إما قبل أن تحصل له مرتبة التمكين فالسماع عندنا حرام في ذلك الوقت أو سمع بعد التمكين بشروطه المعروفة التي ذكرناها في غير هذا الموضع ويعلم من هذا أنه قد نزل

بعض من لقيناه من المشايخ وكان يولع بالسماع وكان قبل ذلك لا يقول به فسألنا عنه فقلنا الشيخ متمكن ومقام السماع نازل وحظه النفس فما هو الشيخ والله أعلم إلاّ نزل إلى السماع رحمة بنفسه دنيوية وجاد على السماع بذلك ليشرف به السماع فإن السماع يشرف بالعارفين ولا يشرف به العارفون فصار نزوله إليه كنزول الحق لعباده هل من تائب فيغفر له فيشرفنا نزوله إلينا ولم يشرف هو بنا هذا إذا كان الشيخ عالياً ولكن يقع منه هذا نادراً إلاّ إن أراد الحق أن يبقيه فيه زماناً طويلاً فيعلم الشيخ إن كان عارفاً متمكناً أنه مطرود وأن رجوعه إلى السماع مستصحباً عقوبة من الله عزّ وجلّ له لذنب أتاه ولذلك عقبه بالسماع فلا يجد حاله إلاّ فيه ويفقدها إذا أفقده مكراً من الله واستدراجاً فيبكي على نفسه ويبحث على ما جنته نفسه فيجد ذنباً ضرورة لا بد من ذلك والله يلبسنا وإياكم رداء العافية ويحلنا وإيّاكم المراتب السامية العالية ولا يجعلنا وإيّاكم ممن له إلى سماع السماع أذن واعية فيكون من أهل القلوب اللاهية . يا نفس أعرض عليك غير هذا ؟ قالت نعم أحوال مثل هؤلاء هي الشفاء والدواء إذ ليس لنا سبيل إلى الله تعالى إلاّ على مدارجهم ولا إرتقاء إلاّ على معارجهم فبأحوالهم يتحقق وهي الوصلة إلى الحق .

قلت لها : نعم هذا أبو الدرداء (رضي الله عنه) روينا من حديث أحمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه حدثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة قال أبو الدرداء (رضي الله عنه) إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً منك للناس . وكان أبو الدرداء (رضي الله عنه) من الذين أوتوا العلم ناشدتك الله يا نفس هل كنت قط على ما أشار إليه أبو الدرداء قالت كنت على بعضه لا كله قلت لها فقد نقصك من الفقه على قدر ما

نقصك منه فقد ثبت جهلك قالت صدقت ولكن أشرح لي قوله قلت لها نعم سمعاً وطاعة أما قوله إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً تحت هذا الكلام بحور طامية وأسرار عالية عمادها الذي يرجع إليه معرفة القرآن ومنزله وتنزله ، وليس هذا المكتوب بجملته لما بني عليه من الاختصار فأما الوجوه يا نفس التي يكون بها فقيهاً من رآها فهي كثيرة نذكر منها وجهين أو ثلاثة فمنها المسألة التي كنا فيها في سماع الشعر وذلك أن الإنسان له أحوال كثيرة يجمعها حالتان مسميتان بالقبض والبسط وإن شئت الخوف والرجاء وإن شئت الوحشة والأنس وإن شئت الهيبة والتأنس وغير ذلك فمتى أتصف الإنسان عارف كان أو مريدا متمكناً أو متلوناً بحال من هذه الأحوال فإنه من المحال أن يتصف بها عبد من غير باعث ولا داع إليه إلاّ في وقت ما وهو مقام ومفزع نص عليه الشيوخ وهو أن تجد قبضاً أو بسطاً وتجهل سببه فالمحققون يخافون من ذلك أن يمكر الله بهم فيه فمتى تصف الإنسان بشيء من هذه الأحوال فلينظر من داعية إلى ذلك ومن سلطانه فإن كانت آية من كتاب الله فإن حاله انبنى على أصل صحيح وبيان ذلك إن النفس ليست بمحل للقرآن الكريم فإنه يثقل عليها بطبعها وحقيقتها وهنا تفصيل فإن القرآن يعم الحقائق كلها والنفس من جملتها فلا بد أن يكون لها فيه نصيب وما بقي إلاّ تعيين ذلك النصيب من غيره وكنا نذكره لولا المدعي يأخذه فتركناه لهذا السبب والشيطان أبعد من أن يكون له حال فيك فإن الشيطان ليس له منك من يأخذ منه إلاّ نفسك وهي قد أبت عن حمل القرآن لضعفها عنه فمن المحال أن ينبعث عن القرآن حال من الأحوال من الشيطان أو النفس ألبتة وتعرف عند ذلك أن الحال في العقل والعقل في الروح لا في النفس وأن الروح صاحب الملك وأن الملك صاحب العلم والفراسة والإلهام واليمنى والآخرة والذكر والحق واليقين ، فلا بد أن تكون في حالك الذي قام بك من القرآن صاحب علم أو شيء مما ذكرناه لك فلهذا أشار الجنيد(رضي الله عنه) علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ولهذا قال الله تعالى إن في

ذلك لآيات لأولي الألباب ولأولي النهى ولقوم يعقلون كما إنه إذا أنبنى الحال من الشعر والسماع والصفق والألحان إنما يتلقاه من الهوى والهوى في النفس والنفس صاحبة الشيطان الذي الشعر نفثه على ما أخبرنا به رسول الله (ص) إلاّ ما تعلق منه بتوحيد الله عزّ وجلّ فهو محمود من محامد النفس خاصة ما زال انبعاثه من أصله وأن الشيطان للنفس بمنزلة الملك للروح فكما كان أميناً على الأوصاف التي ذكرنا بعضها كذلك الشيطان في مقابلة صاحب الجهل والملك في مقابلة صاحب العلم والظن في مقابلة الفراسة والوسوسة في مقابلة الإلهام والشمال في مقابلة اليمين والدنيا في مقابلة الآخرة والغفلة في مقابلة الذكر والباطل في مقابلة الحق والشك في مقابلة اليقين والمعصية في مقابلة الطاعة والتشبيه في مقابلة التنزيه والشرك على مراتبه في مقابلة التوحيد وغير ذلك مما تضيق هذه العجالة عنه فإنه باب واسع هذا انموذجه وكل حال ينبعث عن القرآن فلا بد أن يعلو بصاحبه إلى أحد هذه المنازل على قدر السماع ومعنى ينبعث عن القرآن لا يزول سامعه عن المعنى الذي نزله له القرآن لا لخيال قام به عند تلاوة القرآن في معشوقه أو المرأة التي اتخذها أختاً على دعواه ولكل هذا شروط وكل حال ينبعث عن الشعر والسماع فلا بد أن ينزل بصاحبه إلى أحد هذه الدركات وسر ذلك أن أصل إنبعاث القرآن كلام الله المقدس الذي ما اعتراه قط نقص نفس ولا تدنيس ولا جاز عليه ذلك فمن المحال أن يعطي إلاّ بحسب طهارته . وأصل إنبعاث الشعر كلام المخلوق والناقص الدنس الذي ما صح له كمال طهارة لامتزاجه فالغاية في الشعر أن يكون ممتزجاً لا تكمل طهارته أبداً فمن ثم إلى الآن لم يزل في النقص والتدنيس فمن المحال أن يعطي حالاً ناقصاً دنساً . هذا حالة العارفين المكملين فيهم ومعهم أتكلم من السادة الكبار يعرفون هذا من نفوسهم وأما من نزل عنهم من المدعين والمريدين فلا كلام لنا معهم ولهذا قال أبو يزيد البسطامي (رضي الله عنه) في سماع

العارفين مطلقاً يحكم على مقام أهـل السماع أنهم أهـل الكدية واستعاذ بـالله منـه كمـا استعـاذ من طي الأرض والمشي على المـاء وفي الهـوى وسـأل أن يهيئه الله لشيء من أشيـائـه أي سر من أسـراره ، فلو تبـدلت هـذه الأسرار في السمـاع لما استفـاد منـه مثـل أبي يـزيـد وقـال في حق المـريد إذا رأيت المـريد يميـل إلى السماع فـاعلم أن فيه بقيـة البـطالـة فجعل محله للمريدين البطالـة وللرجال الكـدية ، وإنمـا سقت كلام أبي يـزيـد (رضي الله عنه) لمـا وصلني عن بعض النـاس من المقلدين في بعض الطريقة أنـه قال لمـا سمع مني الإنكـار في السماع وقـد أوضحت لـه حقيقته حتى اعتـرف بها فقـال تقليد بتقليـد والأولى أن أقلد الشيـوخ المتقدمين الذين قالوا بـالسماع ، ولهـذا سقنا كـلام أبي يزيـد لكونـه من المتقـدمين وأن كـلامنـا مـوافق لــه ولقـد بلغني من ثقـة عن رجـل من المتمشيخين لا من الشيـوخ كـان يـلازم مجلسنـا فسمعنـا نتكلم في السماع واجازته وأنه مباح وبينا نقصه في المقـامات واين ينتهي بصـاحبه فغضب وانقـطع فسألت عنـه وما شأنه فقيـل إنـه قـال قـد كـان الشيـوخ يسمعـون مثل ابن الـدقـاق وغيـره فلم أدر قبـل ثم أتعجب من جهله في حكمه على الحق بالرجال والرجال لا يعـرفون إلاّ بـالحق لا الحق يعرف بهم فهـذا جهل محض وتقليـد صـرف ومن هـذه حـالتـه في العلم كيف يرجى فلاحـه في نفسه أو كيف يتصـور أن يفلح به غيـره أو أتعجب أيضاً من عدم تحصيله لما أوردناه في السماع فإذ لم نحـرمه بـل أبحنا الشعـر والغنـاء على القدر الـذي جاءت بـه الشـريعة ثم تكلمنـا في نقصـه من المقـامات وأين منـزلته والفـرق بينـه وبين غيـره كمـا نفـرق بين التـوكـل والـزهد أي الـذي ينبني على معرفـة التوكـل ما هـو والزهـد ومقامـه وأن المتصف بصفة ما يكـون بحيث مقامهـا ويتميز في أهلهـا وقد سمعت من أبي محمـد عبد العـزيز المكتـوب له هـذه الرسـالة(رضي الله عنـه) إشارة عجيبـة لا يعرفهـا إلاّ متمكن متحقق جداً في قـولـه تعـالى : **﴿وما كـان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يـرسل رسـولاً﴾** فقال

(رضي الله عنه) سر هذه الآية في قوله لبشر ولا يكون بشراً إلاّ من غلبت عليه البشرية ، وفي الآية عندي تفصيل عجيب في نساء يوسف (ع) ما يؤيد إشارته ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم وعندنا من الدلائل عليه ما لا يحصى فهذا من بعض وجوه القرآن الذي نبه عليها أبو الدرداء (رضي الله عنه) ومنها أن يردك إلى الحق ويصرفك عن الخلق في معاشك وما ضمن لك وغير ذلك مما تحذر وترجو فإن القرآن يحرضك على هذا وكذا فعل أبي الدرداء بآية قرأها قال فأردت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأخذت في العبادة وتركت التجارة يؤيده قول الله تعالى لموسى (ع) أطلب مني كل شيء حتى الملح تلقيه في عجينك وهذا المقام هو الذي أخذه سالم عن النبي (ص) وقد تقدم ذكره ، وهذا يعني ما في كلامه .

فقالت النفس قلت الحق . وفي هذا غنية لي إن كنت عاقلة فالويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات وقد بقي من كلام أبي الدرداء الكلمتان مقت الناس في جنب الله ومقته لنفسه ، ومقت الناس مشكل . فقلت لها يا نفس ليس الأمر كما ظننت أما قوله ولا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله فاعلمي أن للإنسان حالتين : لا يخلو إما أن يغلب عليه ربه أو نفسه فإن غلب عليه ربه لم يعرف الناس ولا ما هم عليه وأداه ذلك إلى تركهم في جنب ما حصل في نفسه من الأنس بالله ويمقت هنا بمعنى يترك فإن من مقت شيئاً تركه فكني بالأصل عن الفرع وأما من غلبت عليه نفسه فالمقت هنا على بابه وصورته ، ومقته للناس أن الغالب على الناس المخالفة والبطالة ، فلا يزال يمقت منهم تلك الأفعال وينبههم عليها ويقرع أسماعهم بها وينصحهم في دين الله وجنبه فيثقل ذلك عليهم ويستخفونه ويبردوه ويجتنبوه ويسدون الأبواب في وجهه حتى يتركوه فرداً وحيداً لا صديق له ولا معاشر كما قال (ع) ما ترك الحق لعمر من صديق فإذا رجع الناس أعداء له لا يكلموه رجع بالضرورة إلى نفسه فمقتها بأنواع من

التوبيخ من قلّة الصدق في العمل وعدم الإخلاص ودخول العلل في المخاطبات والخواطر والنصيحة والإرشادات فصار مقته لنفسه أشد من مقته للناس ولا يقدر ينفصل عن نفسه ولا تنفصل عنه مثل الناس فيفتح له في ذلك من الفقه الإلهي والعلم اللدني مالا يعرفه إلّا من شاهد ، وحسبك يا نفس فقد أطلت على سؤالك فقنعي بهذا القدر فإن هذه المسألة أعظم وأقوى من أن أبسط شرحها في المجلدات فقالت قنعت وبالله استغنيت فهات غيره فقد عرفت وتحققت أني لا شيء ولا أصلح لشيء وأنّي في وجودي وفي عيني كما كنت قبل وجودي و **﴿قد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾**و **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾** وفي الحقيقة لم يزل كذلك ولا يزال قلت لها نعم هذا عثمان بن مظعون صاحب رسول الله (ص) الذي أوذي في الله فرضي وتعرض لذلك : لما مات دخل عليه رسول الله (ص) حين مات فاكب عليه ثم رفع رأسه ثم حنى الثانية ثم رفع رأسه ثم حنى الثالثة ثم رفع رأسه وله شهيق فعرفوا أنه يبكي فبكى القوم فقال : أذهب عنها أبا السائب فقد خرجت منها ولم تدنس منها بشيء . روينا هذا من حديث أبي حامد بن جبلة بسنده إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) ورويناه أيضاً من حديث أبي بكر بن مالك بسنده عن عبد ربه بن سعيد المدائني أن رسول الله (ص) دخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكب عليه يقبله فقال رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أثابت منك . ناشدتك الله يا نفس فنعمت النفس عهدتك في الإنصاف من نفسك خبريني لو كنت في زمان النبي (ص) على هذه الحالة التي أنت عليها اليوم وتموتين هل كان رسول الله (ص) يفعل بك مثل هذا قالت أما لو جازاني على ما أنا فيه وعليه لخفت أن يقول لأصحابه صلّوا على صاحبكم بل أعتقد والله في شأني أني أقرب إلى قوله تعالى : **﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾** مني إلى قوله تعالى : **﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن**

لهم﴾ هيهات كيف أن يكب عليّ أو يقبلني بل كان يبكي عليّ شفقة لما يراه من سوء حالي وشر ما انقلبت إليه فياليته يؤذن له (ص) في الصلاة على غير أن قوله (ص) في معرض الثناء عليه ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك أنه ما سعى لها ولا أصابت من قلبه تشوقاً إليها ولكنه أتته من غير سعي إليها فقبلها وتصرف فيها فلبس منها الرقاق وأكل منها الرقاق وعلا مسكنه مع فراغ القلب من ذلك وهذا في القدرة جائز مع القدرة عليه ولقد رأيت في زماني هذا قوماً من أهل التمكين والتحقيق والمعارف قد فعلوا مثل ذلك أكلوا الشهي من الطعام الغالي ثمنه وشربوا اللذيذ من الشراب ولبسوا الرفيع من الثياب وربما شيدوا البناء وأحكموا ورفعوا سقوف بيوتهم إلى حيث لا يحتاجونه وذلك عن أمرهم بذلك وعن استحسانهم لذلك وسكوتهم عليه ولم يعدلوا بعد المعرفة والتحصيل لمقام التمكين إلى ما كانوا عليه في بدايتهم من ترك الأسباب وطرح الرقاع بعضها على بعض فأخاف أن لا يكون هذا كذلك وقد قيل عنه ما أصابت الدنيا منك شيئاً ولا أصبت منها شيئاً من باب السعي والكد فأوضح لي شأنه وكيف كان حاله وهذه الحالة التي رجع إليها العارفون هل هي خير مما كانوا عليه أو كانوا في حال فقرهم وتقشفهم أحسن وأثبت قلت لها نعم أما حال عثمان بن مظعون فروينا هذا عنه رضى الله وأما حالة العارفين الّذين ذكرتهم من بسط الدنيا فروينا من حديث عبد الله بن أحمد بن إسحاق قال حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين قال أخبرنا الربيع الرشدني قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني يونس بن زيد عن ابن شهاب أن عثمان بن مظعون(رضي الله عنه) دخل يوماً المسجد وعليه نمرة قد نخلت فرقعها بقطعة من فروة فرق له رسول الله (ص) ورق أصحابه لرقته فقال مه كيف أنتم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى وتوضع بين يديه قصعة وترفع أخرى وسترتم البيوت كما تستر الكعبة قالوا وددنا أن ذلك قد كان يا رسول الله فأصبنا الرخاء والعيش قال فإن ذلك كائن وأنتم اليوم

خيـر من أولئك وهـذا الحـديث يـا نفس قـد انبـا عن الفـريقين اللذين سألتيني عنهما هذا حال عثمان على ظاهره فقير من الـدنيا وهـذا حال من توسع في الـدنيا من العـارفين قد جعـل الله حالـة الضيق والشـدة خيـراً للإنسان من الـرخاء والسعـة وكأني والله يـا نفس بك تقـولين : أرى أهل هـذا المجلس وهم الصحـابـة الأخيـار وهم العـارفـون بـالله المحققـون حقـائق الـوجـود لمـا ذكـرهم النبي (ص) صـورة التـرفـه والتنعم اهتـزوا وسـألوا متى ذلـك وفرحـوا بهـذا القـدر فكـذلـك أنـا أيضـاً أرضى بهـذه المنزلة وكذلك العارفون الـذين وسعوا على أنفسهم دنيـاهم فقلت لها مـا أعماك عن نور مشكاة النبوة الساطعة أنـوارها فقـالت لا تنظر إلى كـلامها ظـاهـراً هـذا لتعلم أن النعيم لا يحجب عـن الله ولا الشـقـاء والبـؤس يحجب عن الله إذا كـان الحق غالبـاً على قلب العبد فـإنـه لا نعيم أشـد ولا أعـظم من نعيم النبيين والأوليـاء في الجنـة في مـلابسهم ومـآكلهم ومشـاربهم ومنـاكحهم ومـراكبهم ومفـاكهتهم ولا يحجبهم ذلـك عن الله البتة لسرين قلت لهـا فأنـا مسلم أن ذلك لا يحجب عن أنـه ولكن قـال الرسول (ص) لتلك الجماعة الذين قالوا وددنا أن ذلك قد كـان فأصبحنـا الـرخـاء لتحققهم بـالله تعـالى وعلمهم أن الأحـوال لا تحجب عن الله تعالى فإن ذلـك كائن يعني بسط الـدنيا عليهم مبشـراً بفتح ملك كسـرى وقيصـر ثم قـال لهم أنتم اليـوم خيـر من أولئـك فـأشـار بقـولـه وأنتم لعصمتهم من الـدنيـا وأن فتحت في حيـاتهم كـأبي عبيـدة بن الجـراح وغيره وفي ذلك تـرجيح الفقـر وشظف العيش على النعيم فبين لهم هـذا المقـام ونبههم على نقص ذلـك المقـام ونقص من اتصف بـه وإن بقيت عليه مشاهدته ومعرفته فإنه نعيم استعجله في غير موطنـه وطرفـه استعمله في غير موضعـه فوضـع الحكمة في غيـر موضعهـا فعادت معـرفته جهـلاً وكشفه حجاباً وحقيقته خيـالاً ألم ترى إلى الـذي قال لـو كشف الحجاب مـا أزددت يقيناً لعـظيم الكشف وهـذا عمـر بن الخـطاب (رضي الله عنه) كيف أجتنب طيب الطعام وفهم من كـلام الله تعالى : ﴿أذهبتم طيبـاتكم

في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ إنه ينسحب على كل إنسان من مؤمن وكافر أترى يا نفس هذا العارف الذي وسع عليه في الدنيا يكون أفقه من عمر بن الخطاب الذي وافق رأيه في الأحكام وقد شهد له الرسول (عليه الصلاة والسلام) أنه ليس من الباطل في شيء اجيبيني يا نفس فإنك لا تعدوا قدرك لا أنت ولا العارف الذي وسع عليه إذ لا بد من التأسي فحالة النبي (ص) أولى فهو الذي عاش في البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر (رضي الله عنه) لما أثر شريط[1] السرير في جنبه (ص) فقال تذكرت كسرى وقيصر فقال (ص) أما ترضي أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة أين أنت يا نفس من قول سلمان الفارسي (رضي الله عنه) على ما رويناه من حديث أبي أحمد محمد بن أحمد الغطريفي ومحمد بن عاصم قالا حدثنا أبو القسم البغوي قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت أبا البحتري يحدث عن رجل من بني عبس قال صحبت سلمان الفارسي (رضي الله عنه) فذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى فقال إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخولكم لممسك خزائنه ومحمد (ص) حي ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مد من الطعام ، بم ذاك يا أخا بني عبس ؟ فانظري يا نفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبي (ص) وتعريفه وتقريره في قوله بم ذاك ثم إنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله (ص) فلا أرفع منه منزلة عند الله ولا أرفع منه درجة ولا نعيماً في الجنة وهذه حالته في دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة (رضي الله عنها) أن تنال فيها راحة ولا توسعاً ، هذا وقد رأى أثر حبل القربة في عنقها من حمل الماء وأثر الرحى من الطحين في يديها وجاءه السبي فلم ير أن يعطيها خادماً يحول بينها وبين ذلك الشقاء الذي نزل بها وأعطاها بدل ذلك تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وقال هو خير لكم فأين أنت يا نفس وهذا العارف فلا الحق رضيها لنبيه ولا

(١) في الهامش : «الشريط : حبل يفتل من الخوص» مختار الصحاح .

النبي (ص) رضيها لابنته ووصيه وإذا لم تقتد بهذا النبي ولا عرفت تنزيل الحق للمواطن فقد خرجت عن حد المعرفة بالله وحب حالة رسول الله (ص) واتباعه ولا فائدة ولا تمييز للعارف عن غيره من العوام إلاّ بإستصحابه في حالته حالة النبي (ص) وأما العامة فانهمكت في المباحات فبم تميزت عنهم في ظاهرك كما تدعيه في باطنك . ألست تدري يا نفس ليلة كنا عند أبي محمد عبد العزيز المكتوب له هذه الرسالة ونحن على العشاء فتكلمنا في حالة الدنيا إذا أقبلت على العارف وتصرف فيها مع تعري قلبه عن التعلق بها فقال(رضي الله عنه) والله ما يستوي فراغ قلب عارف عنده درهمان وفراغ قلب عارف عنده درهم فصاحب الدرهم أفرغ من صاحب الدرهمين هذا حكم الشيخ أبي محمد عبد العزيز في هذا الحال ، فكيف لو دخل معك في باب المقام والأسرار لكان يرميهم خارجاً عن المعرفة فإن الحقائق ترميه والموطن يمجه .

حكاية جاء رجل إلى سيدنا أبي مدين (رضي الله عنه) فقال يا سيدنا إن الشيطان يؤذيني فعسىٰ أن تدفعه عني فقال له الشيخ قد شكى إلى إبليس منك قبلك ، فقال وما قال لك قال قال لي يا شيخ تعلم أن الدنيا خلقها ربي وجعلها (حبالي) وشركي، وملكيتها فجاء فلان فتعدى علي وأخذ مالي منها فعدوت وراءه أطلب، حقي منه ووالله ما قصدت منهم إنساناً ولا طلبت منهم أحداً ولا برحت من مكاني احفظ على بستاني ومالي فمن أخذ منه شيئاً تبعته أطلب حقي وقد عرفت أن فلاناً يشكوني إليك فسبقته وقد أخبرتك بالقصة وأنا لا أترك منه حقي واسلبه مما أقدر عليه من دينه أو أرد إلى متاعي كما فعل الزهاد والموفقون ولهذا قال تعالى : **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان فمالي عليهم حجة ولا حق فإنهم تركوا مالي وهذا تعدي ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم من الظالم ؟﴾** فقال الرجل أنا فقال له الشيخ ردّ إليه دنياه يرد إليك آخرتك . هل قنعت يا نفس قالت نعم

قلت هـذه عشرة شهـود كمـا شـرطت لـك قـد وفيت بـذكـرهم من خيـر القـرون من صحابـة رسول الله (ص) ولم أجـد لـك قـدمـاً مـع أحـدهم فلمن اتبعت أو بمن تـأسيت فقالت اتبعت هـواي فتأسيت بشيـطان مـدع في المعـرفـة مكب على الـدنيـا مثلي فـائمـر لي الـدعـوى وعـراني من مـلابس التقوى فقـالت وأنا أتـوب إلى الله الآن وأتضرع إليـه في الـوفـاء والعـدل والميزان وكمـا وفيت أنت بشهـودك العشـرة ومننت علي بـذلـك فقـد وفت لك بـالإنصاف والإقـرار بالحق ولم أمـر ولا دافعت الحق بـل كنت سـلسلـة القيـاد وذلـك بتـوفيق الله وعصمني الله ممن قـال فيهم : **﴿فلمـا جـاءتهم آيـاتنـا مبصـرة قـالـوا هـذا سحـر مبين وجحـدوا بهـا واستيقنتهـا أنفسهم ظلماً وعلواً﴾** ولـو عانـدت وجحدت لمـا جنيت على أحـد إلاّ على نفسي رزقني الله وإيّـاك من تـوحيـده والعلم بـه سبحـانـه وتعـالى المراتب العليـة والمنازل القـدسية حيث لا تـدنيس ولا جهل ولا تلبيس إنه عليم حكيم .

فاشرع في النمط الثاني فلقد لقيت سـامعاً مـطيعاً . فقلت **﴿الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾** فقالت **﴿الحمد لله الذي هدانـا لهذا وما كنا لنهتدي لـولا أن هدانـا الله﴾** لقد جـاءت رسل ربنـا بالحق : حمـدي يا سيـدي أسلم من حمـدك فـإنـك في معـرض الفتنـة من جهـة التسخيـر وحمـدي على تحصيـل الهـدايـة والتيسيـر. فقلت لهـا صـدقت أرعـوي بسمعك هـذا خير التـابعين بشهـادة سيـد المـرسلين (ص) أعني أويس بن عـامر القـرني(رضي الله عنه) الذي أوصىٰ به النبي (ص) عمـر وغيـره وذكره لهم روينـا من حـديث أبي بكـر محمـد بن أحمد قال حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبيد الله بن عبد الكريم قال حدثنا سعيد بن أسيـد بن موسى قال حدثنا ضمرة بن ربيعة عن أصبـغ بن زيـد قـال كـان أويس القرني إذا مشىٰ يقول هـذه ليلة الركـوع فيركـع حتى يصبح وكـان إذا أمسى تصـدق بمـا في بيتـه من الـطعـام والثيـاب ثم يقـول اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ومن مـات عريـاناً فـلا تؤاخذني بـه ناشـدتك

الله يا نفس هل اتصفت بهذه الحالـة قطعت الليـل بسجدة واحـدة ثم لم تـرفعي حتى الفجـر واستصحبت أن لا تبيتي إلاّ مثـل هـذا المبيت كمـا استصحبه أويس وقلت لله مثل مـا قالـه ؟ قالت لا والله كـل ذلك لم يكن ولكني يلوح لي من وراء هـذا الكـلام بـوارق من الحقـائق عسىٰ أن تنبهني عليهـا قلت لها نعم أويس هـذا كان متمكنـاً في مقـامـه على بينـة من ربه وعلامة عارفاً بحركـاته المستـأنفة على يقين من تحصيـل أحوالـه السالفة وكانت ليلة السجود عنده معروفة وليلة الركوع عنده كـذلك وغيـر ذلـك من الأفعال ومن هنـا يعرف تمكنـه فإن أبـا يزيـد وهو من الأقـطاب ومن كبـار الأئمة لم يحصـل له هـذا التمييز فـإنه كـان يقول إني أستقبـل الليلة أطلب قطعها راكعـاً وساجـداً فأقف في صـلاتي فلا أركـع أو أركع فـلا أسجد أو أسجـد فلا أرفـع فكم بين من يأتي قصـداً وبين من يمشي فيفتح له فهذه حالة صلاة أويس وأما كونه يتصدق بطعامـه وشرابـه وثيابـه ثم يقـول اللهم من مات جـوعاً فـلا تؤاخذني بـه ومن مات عـريـانـاً فـلا تؤاخـذني به ينبـه على مقامـه الأعلى وقطبيتـه المثلى وهـذه حـالـة إمام وصاحبها على الغـاية في المقـام فيعطي مـا ملك ويتضرع لمن استخلفـه على عبيـده بالـرحمة لهم والشفقـة عليهم قال الله تعـالى لرسـولـه (ص) ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين**﴾ وقـال له لمـا دعا على رعـل وذكوان وعصية إن الله لـم يبعثك سباباً ولا لعـاناً وإنمـا بعثك رحمـة للعالمين ولم يبعثـك عذابـاً والمكمل من سبقت رحمتـه غضبه قـالت النفس يا سيـدي أرفق علي ولا تعجـل فقـد ظهـر لي في مسألة أويس هـذا أمـر خـرج الحلاج فيه فوقه وذلـك أن الحلاج (رضي الله عنه) قال مخبـراً عن حالتـه إذا قعـد الرجـل عشرين يـومـاً دون غـذاء ثم جـاءه طعـام فعـرف أن في البلد من هو أحوج منه لذلـك الطعـام فأكله ولم يؤثـر ذلك المحتـاج فقد سقط وهـذا مقـام عـال كمـا رأيتـه وهـذا أويس(رضي الله عنه) مـا كـان يتصدق إلاّ بفضل طعـامه وثيـابه فيـأخذ حـاجته أولاً ثم يعـطي ما يفضـل كل ليلة عن قوتـه وهو يعلم أن ثم جـائع ولـم يعـطه وهذا كمـا رأيته قلت

لهـا يا نفس مـا أنت إلاَّ اعترضت اعتـراض من لا يفري الحقـائق ولكنك جهلت المقـام فاسمعي الجـواب واعلمي أو أويسـاً هـو الإمـام الـذي لا يلحق لتعلمي أيتها النفس أن العارف إذا كان صاحب حـال مثل الحـلاج فـرق بين نفسه وبين غيـره فعامـل نفسه بـالشدة والقهـر والعذاب وعـامل نفس غيـره بالإيثـار والرحمـة والشفقـة وإذا كـان العـارف صـاحب مقـام وتمكين وقـوة صارت نفسـه عنه أجنبيـة لا فـرق عنـده بينهـا وبين نفـوس العالم فما يلزمه في حق نفوس الغيـر من الرحمـة والشفقة يلزمـه في حق نفسـه لكونهـا صارت عنـه أجنبية وارتفـع هو علويـاً وبقيت هي مع أبنـاء جنسهـا سفلية فلزمـه العطف عليهـا كما لـزمه العـطف على غيـرهـا فـإن صاحب الصدقـة العارف إذا خـرج بصدقته ولقي أول مسكين يدفـع إليه الصـدقة فـإن تـركـه ومضي إلى مسكين آخـر ولم يـدفـع فقـد انتقـل من رضى ربـه إلى هوى نفسـه وخرج من ديـوانهم فـإنهـا مثـل الـرسـالـة لا يخص بهـا شخصاً أول من يلقـاه يقول لـه قل لا إلـه إلاَّ الله ولا شك أن هذا العارف إذا وهبـه الباري رزقـاً يعرف أنـه مرسـول إلى عالم النفـوس الحيـوانيـة فينـزل من حضـرة عقله إلى أرض النفـوس ليؤدي إليهم ذلـك القدر الذي وجه به فـأول نفس تلقاه نفسـه لا نفس غيره وسبب ذلـك أن نفوس الغير غير ملازمة له ولا متعلقـة به لأنهـا لا تعرفـه ونفسه متعلقـة به ملازمة لبابه فلا يفتحه إلاَّ عليها فتطلب أمـانتها منـه فيقدمهـا على غيرهـا لأنها أول سائل وإلى هذا السـر أشار الشـارع بقولـه أبدأ بنفسـك ثم بمن تعـول والأقربـون أولى بالمعـروف لتعلقهم بك ولـزومهم بابـك والغير لا يتعلق بـك ولا يلازمـك مـلازمـة نفسـك وأهلك فلمـا تـأخـروا كمـا هي الأسـرار سواء تخـرج من عند الحق على بـاب الـرحمـة فـأي قلب وجـه متعرضاً سائلاً عند الباب دفـع إليه حـظه من الأسرار والحكم وحـظه منها على قدر ما يرى فيه من التعـطش والجوع والـذلة والافتقـار وهم خاصـة الله وإلى هـذا المقام أشـار المشايـخ وعليـه حـرضت الشـريعـة بقـولهـا تعـرضوا لنفحـات الله ومن تأخـر ومن نسـي نسي فأنـظركم بين المنـزلتين

منـزلة الحـلاج ومنزلـة أويس وأنظر هـذا المقـام على علوه وسمـوه كيف اشترك في الظاهر صاحبه مع أحوال العامة فإن العـامة أول مـا تجود على نفسها ، ولا يتعدى جـودها إلى غيـرها وإنمـا يتصرفـون تحت حكـم هذه الحقيقة وهم لا يشعرون ولمـا أعموا عن هـذا السر وصـاروا مثل البهـائم لا يعرفون مـواقع أسـرار العالم مـع الله حرصـوا على الإيثار ومـدحوا بـه وهـو مقام الحـلاج الـذي ذكـرت عنـه ورأيت أنـه غـايـة فهكـذا فلتغـزل الحقـائق وتحاك حلل الـرقائق فقـالت النفس هذا شيء والله مـا قـرع قط سمعي من غيرك وإن هذا لهو الحق المبين ولمثل هـذا فليعمل العـاملون وفي مثـل هـذا فليتنـافس المتنـافسـون ولقـد شـرحت صـدراً ورفعت في المعارف قدراً ولكن بقيت عليـك في المسـألة تمشية أيضـاح حقيقة وهي لعمـري دقيقـة وهي قـولـك إن الله بعث النبي وقــد استسقى فـاستسقى فسقى ثم استسقى في المقــام الآخـر فــأبى وقـال أغيث كغيث الكفــار فاختار لهم الشدة على الرخـاء وهو من بـاب بسط العذاب وقبض الآلاء قلت صـدقت يا نفس قـد أثبت ذلك في الحجـة البيضاء قـالت فـاودعني إيـاه في هذه العجـالة الغـراء قلت لها نعم خـرج مالـك في مـوطـأه عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس بن مـالك (رضي الله عنه) أنه قـال جاء رجل إلى النبي (ص) فقـال يا رسـول الله هلكت المواشي وتقـطعت السبل فادع الله لنا فدعا رسول الله (ص) فمـطرنا إلى الجمعـة قال فجـاء رجل إلى رسول الله (ص) فقـال يا رسـول الله تهدمت البيـوت وانقطعت السبـل وهلكت المـواشي فقـال رسـول الله (ص) اللّهم ظهـور الجبـال والآكام وبطون الأوديـة ومنابت الشجـر قال فـانجابت عن المدينة انجياب الثـوب يا أهـل القلوب المحجـوبـة عن الإطـلاع على مـا أودع في هـذه الألفاظ من الغيوب .

شـعــر :

لقـد أسمعت لو نـاديت حياً ... ولكن لا حيـاة لمن تنـادي

أعطى هذا سيد العالم (ص) مفتاح المنع والعطاء والشدة والـرخاء

فاستسقى واستصحا وأثبت ومحى ثم لازم الأدب بعد هذا فقال أغيث كغيث الكفار فرد السائل بسؤاله حكمة أجراها مرسلة ومرتبة أبداها مكملة فأجاب الأول على غاية الإستسقاء حتى يكون في المنع كما كان في العطاء ثم إذا نظرت حقيقة هذا المنع وجدته عطاءان لله في قلوب ماتت في صدورها وخزاً فلا أحس منهم من أحد ولا أسمع لهم ركزاً هذا نبي مكرم ورسول ممجد معظم قام خطيباً في شأن أداء فرضه وجاء إليه رسول من أهل أرضه فرغب إليه في نقض إبرامه لما تحقق من مرتبته عند علامة فألقي ظهر الكف إلى السماء وصفا في الحالة العماء لما كان الكف محل العطاء لم يفعل ذلك في الاستصحاء فأسبل رداء الجو وتموج من حينه الدو فكان نكاحاً معنوياً وكان السيد شاهداً ولياً فلما صح الانتظام ووقع الإلتحام درت الضروع واخضرت الزروع هيهات والله بعد تقطب وبسالة وستور مسدولة دون عين الغزالة وأغبرار واقتار وخشوع وافتقار كما قال المهيمن الجبار - ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة**﴾ فأشفقت لها السماء فابدت مقلتها من خشوعها دامعة فلاحت بين الخشوع والدموع الروضات اليانعة أين أهل الفرح والدعة وأرباب الثروة والسعة والله والله لو أن شمة من روائح الموجود ولا اسماً من أسماء المعبود إلاّ ببذل المجهود وصحة المقصود وتفطير الكبود وخشوع الجوارح وتقصف الجوانح وإقامة المآتم والمنائح والهمهمة في المحاريب بالقرآن والتعرض بتوفير الهمة وصدق التوجه للرحمن في ري الظمآن ناداني الحق في سري عبدي وابن أمتي وعزتي وجلالي ومجدي وعظيم سلطاني وعلو مجدي لا نال معرفتي أحد ولا نيل من جزيل وعدي إلاّ حتى يتصف في هذه الدار الدنيا بما أتصف به أهل الشقاء في الدار الآخرة من الخشوع ذلة وافتقاراً والبكاء دمعاً مدراراً والزفرات المتصاعدة وبنضيج الجلود وتضيق الكبود وتنغص العيش النكيد بهذا حليت أوليائي وأنبيائي لما سبق لهم عندي من السعادة بعد جهد ومكابدة وجوع وشد الحجارة على البطن قاساه

الرسول السيد المطيع حتى فتح له مع أصحابه في لبن وتمر دون لحم ولا خبز بر قال لأصحابه أنكم لتسألن عن نعيم هذا اليوم فنغص عليهم عيشهم على قلته وأخذهم له على فاقة فأحوال الدارين معكوسة وصفاتها منكوسة حفت الجنة بالمكاره وهي ما يقاسيها المؤمن في الدنيا والكافر في العقبى فانظر في أي حزب تكون خلقت الدنيا وخلقت لها أهلاً وخلقت النار لهم موطناً وخلقت الآخرة وخلقت لها أهلاً وجعلت الجنة لهم مقيلاً ومحل رؤيتي مستقراً ومسكناً ملكت الدنيا من سبقت عليه كلمتي بغضبي القاصم ولعنتي فطردته السابقة من باب رحمتي وملكت الآخرة كل كل خاشع أواه جد في مسراه وضمر بطنه للسباق وخاف من حسرة الاستباق فإنه طلق : أنا غايته ورؤية كريم وجهي والتنزه فيه نهايته ﴿**والسابقون السابقون أولئك المقربون**﴾ تسابقوا على نجب الأعمال وتحققوا بحقائق المقامات والأحوال فوصلوا إلى مشاهدة الجلال والجمال إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فهو براقه الذي أخرجه من عنده فإلى مرجعهم لأن قولهم بلا عمل من الأعمال وعندي يجدوته إذا رجعوا من غير نقص ولا اختلال نكتة بإشاراتها من خلف ستاراتها وخلق الإنسان ضعيفاً أقام السيد (ص) على أعواده ساعة إشهاده فقيل له لما طلب منه الإستصحاء أنعمت فأبليت وبالغت في التكحيل لإزالة الرمد فأعميت فاهتز قضيب البان عبداً لله (ص) وإن شئت قلت عبد الرحمن وجال في ميدان الاستخلاف وأراد الجنوح إلى فئة الإئتلاف من فئة الاختلاف ووقف في برزخ الاعتدال بين وزيري الجلال والجمال فغيض الماء وقضي الأمر واستوت السفينة على الجودي الخاشع حين وصف غيره بالمتطاول لها وهو بالمتواضع حكمة أبداها وسريرة أخفاها وكيف لا ينال ما عنده إلاّ بتطاول الهمم وأبرار المقسم من أجل المقسم فانجابت حتى صاروا منها في مثل الإكليل وهي هالة لما كانوا أهل وجه واحد في أصل السلالة فلو رأو من وراء ظهورهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم

مثله لرأوها كالهالة أو كالكلة وقد ورد إنجياب الثوب لاظهار ما في الغيب إنجياب الشوق وارتفاع الشك والريب﴿إن مع العسر يسراً﴾ أواه ثم أواه على أسرار تظهر وأقمار تزهر ولا عيون تبصر ولا ألباب تشعر غار (ص) أن نتخذ من دون الله نداً وأن نصمد إليه في الحوائج صمداً لما كان الحق إلى جميع العبيد أقرب من حبل الوريد ثم أسدل بيننا وبينه حجاب الرسالة وجعل بيدها مفاتيح الكفالة وكتب لهم بها مرسوم الوكالة فنظرت القلوب إلى أيديهم وما برحوا وبسط ناديهم فإذا انقضت الحوائج أسرعوا في الإدلاج يا لها من حسرة ويا شؤمها من فترة حيث لم يقدروا قدره الواحد ضمن له همه ومع تصحيحه لذلك فاته يومه فعاش على النصف من عمره وبهذا زاد على غمره والآخر أشرك في تحصيل الأبناء تعمير الوعاء حتى كأن الجميع ليس لهم خالق وأن هذا الرسول هو الواحد الرازق رضي الله عن الصديق الأكبر صاحب السر العلم الأزهر في قيامه على منبر الطرفاء يوم الداهية الدهياء بموت سيد الأنبياء أمين الأمناء وعلم الاهتداء وقد ذهل من كان عندنا أقوى الأقوياء فما ظنك بالضعفاء وصار الرفيق الأسيف على مذهب السيدة الحميراء لما كان يظهر عليه من شدة التلهف والبكاء فكاء أضعفهم عيناً وأقواهم في صميم السويداء فقال من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فالله حيّ لا يموت ثم تلى استشهاداً على مقالته الزاهراء ﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى آخر الآية الغراء ثم تلاها بقوله جلّ ثناؤه﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ثم خاطب جميع الخصماء فهذه القوة الإلهية من زهده في القوت وسوقه جميع ما ملكته يده لله ورسوله فملكه مفاتيح التابوت فمن غيرته عليه وأمانته إخفاؤه إيّاه إلى يوم فقد صاحب رسالته ففتح تابوت صدره وأبدى مكنون سره ونبه بعلمه على مكانته من الله وقدره وأقر له الفاروق بالشرح لما بدت لعينه أعلام الفتح ولم يزل الصديق مفتوحاً له قبل ذلك من حين ملك المفتاح ورسم ديوان الممالك وإنما كان ينتظر رحلة السيد (ص) إلى

حضرة المحبوب الرفيق الأعلى المالك فحلاه بزينته لما شاركه في نوره وطينته ثم سلك في الهين واللين على مندرجته لما دعى له أن يكون معه وفي درجته ثم أبان له برهان الموافقة بما ذكره عن نفسه (ص) وعنه إلى المقام من المسابقة فسبق النبي (ص) الصديق ولذلك قيل له هناك قف إن ربك يصلّي بصوت عتيق فاستأنس وحن من جهة إحساس البدن وقد اتضحت أسرار ولمعت في علية هذا الوجه بوارق الأنوار فنرجع إلى قيامه (ص) بين وزيري جمال وجلال فأشار إلى وزيره الموهوب والعبوس القطوب أن قد ظهرت سطوتك على الأعداء الغمر بالهلاك والدمار بين صباح رعود ومرهفات بروق وسهام أمطار فأمر العسكر الجرار الجنح فقال لم يهلك سلطاني ولكن سمح فتبسم الجمال وقال صدق يا رسول الله وصدقت وبالحق نطق صاحبي وبه نطقت فإنا تألفنا من غير شتات وحيينا بلا تقدم ممات أنا أظهر لك صدق صاحبي فيما ادعاه وأبدي متنزهاً عجيباً إلى مقلتك النجلاء مما حواه غصنه ووعاه فأرسلهما خديمين في لعالم أمينين خليلين نديمين وانصرف السيد إلى حضرة العين وغاب بلا كيف حيث لا أين فلذلك لم يروا منه (ص) إلاّ صورته المشهودة والحركة المعروفة بيننا المعهودة فقلنا ما شهد به علينا من الأوراق وسارت به الركبان والرفاق وتلى في المكاتيب والمنابر والمحارب في جميع الآفاق .

﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ عشرة لا تطاق وصيحة ما لها من فواق يعاينها قائلها عند السياق إذا بلغت النفس التراق وقيل هل من راق **﴿والتفت الساق بالساق﴾** وأيقن بالفراق .

ولكل واحد من هذه العشرة حظ يراه إذا كان إلى ربه المساق فعليكم بالإيمان الصرف على غاية الجلاء وإلاّ والله فقد نشر الميثاق وأخذتم بضيق الخناق . خرج أبو داوود في مراسيله في هذا الباب عن شريك يعني ابن نمر عن عطاء بن يسار أن رجلاً من نجد أتى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله أجدبنا وهلكنا إن لم يدركنا الله منه برحمة

فادع الله يغيثنا فدعا رسول الله (ص) فرجع الرجل وقد مطروا فأحيوا عامهم ذلك ثم رجع من عام قابل فقال يا رسول الله دعوت الله فأحيينا عام الأول فادع الله لنا فقال رسول الله (ص) غيث كغيث الكفار ، لا : ارجع .

ما أعظم ما تحويه هذه اللفظة من الأسرار لما علم (ص) أن نزول الأمطار عند الله بمقدار وأن ذلك لم تجدر بنزوله الأقدار ردعة بقوله أغيث كغيث الكفار فادرج له العلم في موعظة زاجر وألصق استمرار الرخاء والسعة بالأمة الكافر وإن المؤمن يتقلب في نفسه بين شدة ورخاء وفي قلبه بين خوف ورجاء ليهرب إلى التقليل والزهادة من دام عليه في الدنيا في مأكله ومشربه نعيمه فليتحقق أن ذلك النعيم عذابه وجحيمه فيفرح المقل بفاقته ويستعمل نفسه في الشكر عليها جهد طاقته ويتنغص له عيش الغني فيؤجر في تنغصه ويحرضه على التروح بتبديد المال في ذات الله أو تنقصه فيالها كلمة واحدة عمت القبضتين وانسحبت على الطائفتين لقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب والحلم استشهادي له في توقفه عن الإجابة **﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ ﴿وما ننزله إلاّ بقدر معلوم﴾ ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾** فتأمل يا وليي سدد الله نظرك ما تنطوي عليه هذه الإشارات وما تتضمنه من المعارف والأسرار والمقامات هذه العبارات ولما سمعت النفوس إيرادي لهذه الشذور وإبرازي هذه الأسرار المخدرات من خلف هذه الستور تيقنت أنها في تبان وأن عليين إنما هو الأولى الألباب فالقت يد السمع والطاعة على ملازمة السنة والجماعة والإقرار بالفضل والسبق للمتقدم فإن ذلك هو الإمام المعلم وأيقنت بإقتراب الساعة ونفاد أيامها لظهور شرائطها وأعلامها يقول من كرم هذه الأمة وفضلها : إن من شرائط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها وقد رأينا في هذه البلاد من هذه الشرائط كثيراً وليتهم وقفوا مع سب أولهم من جنسهم ولا يتعدون من ذلك إلى ما هو أعظم منه فوالله يا وليي لقد قرع سمع أخيك سب

عيسى (ع) وسب بعض الصحابة الكرام وسب الله ذي الجلال الإكرام ، وأما المدعون في هذه الطريقة فقد قاربوا الخروج من الجماعة بل خرجوا فطائفة بلغني عنهم أنهم استغنوا عن شفاعة الرسول (عليه الصلاة والسلام) لما تحققوا به مع الحق من حقائق الوصال ولو رأيت أحوالهم لرأيت نقيصه الكون وما تسخن به العين وقال من تبرز فيهم إماماً وهو لا يعرف ما خلق له ويدعي الكشف الأتم مع الحق فقال إن الجنة لم تخلق هكذا أعطاه كشفه المكشوف وعقله السخيف المتلوف وأما وليك فسمع واحداً وقد عاب عليه بعض أصحاب السماع لمثلي يقال هذا إن جبريل لا يحسن يسمع مثلي ولا الملائكة فقمت عليه في ذلك فتاب واستغفر الله وأناب ، فهذه قلوبهم الحاضرة ووجوههم الناظرة إلى ربها الناضرة ! ؟ بل والله وجوه باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ثم أعرف وليي (أبقاه الله تعالى) أن نفسي الخبيثة بطانة السوء لما قرع سمعها أخبار هؤلاء السادة والأئمة القادة كان لها من صغرها تعشق بحديث أويس القرني (رضي الله عنه) قالت لي عسى تنص لي من شأنه بعض ما وصل إليك فإنني ألهج بذكره وأطو معي بساط المناظرة وسد باب التمثيل والمحاضرة وألق ما شئت من أنواع المجاهدة فإني الموافقة المساعدة فشكرت الله على طلبها الاختصار وتركها التطويل وعلمت أنها تريد سلوك سواء السبيل قلت لها نعم حدثني أبو محمد بن يحيى قال حدثني أبو بكر بن أبي منصور قال حدثنا أبو الفضل بن أحمد حدثنا أبو أحمد بن عبد الله عن أبيه قال حدثنا حامد بن محمود قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا أبو الوليد بن إسماعيل الحراني قال حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبيد قال حدثني محمد بن يزيد عن نوفل بن عبد الله عن الضحاك بن مزاحم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال بينما رسول الله (ص) في حلقة من أصحابه إذ قال ليصلّين معكم غداً رجل من أهل الجنة قال أبو هريرة فطمعت أن أكن أنا ذلك الرجل فغذوت فصلّيت خلف النبي (ص) وأقمت في المسجد حتى

انصرف الناس وبقيت أنـا وهو فبينمـا نحن كذلـك إذا قبـل رجـل أسـود متزر بخرقة مرتد برقعـة فجاء حتى وضـع يده في يـد النبي (ص) ثم قال يا نبي الله أدع الله لي فدعا له النبي (ص) بـالشهادة وإنـا لنجد منـه ريح المسـك الأذفر فقلت يـا رسـول الله أهـو هـو قـال نعم إنـه لمملوك لبني فلان قلت أفلا تشتـريه تعتقـه يا نبي الله قـال وأني لي بذلـك إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة يـا أبا هـريرة إن لأهـل الجنة ملوكـاً وسادة وإن هذا الأسـود أصبح من ملوك الجنـة وساداتهم يـا أبا هـريرة إن الله عـزّ وجلّ يحب من خلقـه الأتقياء الأخفيـاء الأبريـاء الشعثـة رؤوسهم المغبرة وجوههم الخمصـة بطونهم من كسب الحـلال الذين إذا استـأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم وإن مرضوا لم يعادوا وإن ماتوا لم يشهدوا قـالوا يـا رسول الله كيف لنـا برجـل منهم قال ذلـك أويس القرني قـالوا ومن أويس القـرني قال أشهـل ذو صهوبـة بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الأدمـة ضارب بـذقنه إلى صـدره رام ببصره إلى موضع سجوده واضـع يده اليمنى على شمـاله يتلو القـرآن يبلي على نفسـه ذو طمـرين لا يؤبـه لـه متـزر بـإزار صـوف مجهـول في الأرض معـروف في السمـاء ، لـو أقسم على الله لأبـر قسمـه ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعـة بيضاء ألا وإنـه إذا كان يـوم القيامـة قيل للعبـاد ادخلوا الجنـة ويُقال لأويس قف فـاشفع فيشفعـه الله في عدد مثـل ربيعة ومضر يا عمر ويا علي إذا أنتمـا لقيتماه فـاطلبا منـه أن يستغفر لكمـا يغفر لكما الله تعالى قال فمكثا يـطلبانـه عشر سنين لا يقـدران عليه فلمـا كان في آخـر السنة التي هلك فيهـا عمـر (رضي الله عنه) قـام في ذلـك العـام على أبي قبيس فنـادى بـأعلى صـوتـه يـا أهـل الحجيـج من أهـل اليمن أفيكم أويس من مراد فقام شيخ كبير اللحيـة وقال إنـا لا ندري مـا أويس ولكن ابن أخ لي يُقال له أويس وهـو أخمل ذكـراً وأقل حـالاً وأهون أمـراً

من أن نـرفعه إليـك وإنه ليـرعى إبلنا حقيـر بين أظهرنـا فعمي عليه عمـر كـأنه مـا يريـده فـأين ابن أخيـك هـذا نحـو مني هـو قـال نعم قـال وأين يُصاب قال بأراك عرفات قال فـركب عمر وعلي سـراعاً إلى عـرفات فـإذا هو قائم يصلّي إلى شجرة والإبل حـوله تـرعى فشدا حمـاريهما ثم أقبـلا إليه فقالا (السلام عليك ورحمة الله وبركاته) فخفف أويس الصـلاة ثم قال و (عليكما السلام ورحمة الله وبركاته) قالا من الرجـل قال راعي إبـل وأجير قوم قالا لسنا نسألك عن الرعاية ولا عن الإجـارة ما أسمـك قال عبـد الله قـالا قد علمنـا أن أهـل السمـوات والأرض كلهم عبيـد الله فمـا اسمـك الـذي سمتك أُمـك قال يـا هذان مـا تريـدان بي قـالا وصف لنـا محمـد (ص) أويسـاً القـرني فقـد عرفنـا الشهـولـة والصهـوبـة وأخبـرنـا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء فأوضحها لنـا فإن كـان بك فـأنت هو فـأوضح منكبـه فإذا اللمعـة فابتـدراه يقبلانـه ويقـولان نشهـد أنـك أويس القـرني فاستغفر لنـا يغفر الله لـك قال مـا أخص باستغفـاري نفسي ولا أحداً من ولـد آدم ولكن من في البـر والبحـر من المؤمنين والمؤمنـات والمسلمين والمسلمات يا هذان قد أشهر الله لكما حـالي وعرفكمـا أمري فمن أنتمـا قـال علي أمـا هـذا فعمـر أميـر المؤمنين وأمـا أنـا فعلي بن أبي طـالب فـاستوى أويس قـائماً وقـال السلام عليـك يـا أميـر المؤمنين ورحمـة الله وبـركاتـه وأنت يا ابن أبي طـالب فجزاكمـا الله عن هذه الأُمـة خيراً قـالا وأنت فجزاك عن نفسك خيراً فقال عمر مكانـك يرحمـك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عـطائي وفضل كسـوة من ثيابي هـذا المكان وميعـاد بيني وبينـك قال يـا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك لا أراك بعـد اليوم تعرفني ما أصنع بالنفقـة ما أصنـع بالكسـوة أما ترى على إزاراً ورداء من صوف متى تراني أخلقهما أما تـرى نعالي مخصـوفتين متى تراني أبليهمـا قـد أخذت من رعـائي أربعة دراهم متى تـراني آكلها يـا أمير المؤمنين إن بين يـدي ويدك عقبـة كؤوداً لا يجاوزها إلاّ ضـامر مخف مهـزول فاخف يـرحمك الله فلمـا سمع ذلـك من كـلامـه ضـر بـدرتـه الأرض ثم نـادى

بأعلى صوته ألا ليت أُم عمر لم تلد عمراً يا ليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها إلاَّ من يأخذها بما فيها ولها ثم قال أويس بأعلى صوته يا أمير المؤمنين خذ أنت هٰهنا حتى آخذ أنا ههنا فولى عمر وأخذ أويس إبله فوافى القوم إبلهم وخلى عن الرعاية وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عزّ وجلّ .

قال المغيرة كان أويس القرني يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة ومما يؤيد هذا ما رويناه من حديث ابن دينار قال قال رسول الله (ص) إن من أُمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العري يحجزه إيمانه أن يسأل الناس منهم أويس القرني وقال عبد الله بن سلمة غزونا أذربيجان وكان أويس معنا فلما رجعنا مرض علينا فحملناه فلم يستمسك فمات فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه فقال بعضنا لبعض لو نزلنا فعرفنا قبره فإذا لا قبر ولا أثر وقال هرم بن حيان قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلاَّ أويساً أسأل عنه فدفعت إليه وهو بشاطىء الفرات يتوضأ ويغسل ثوبه فعرفته بالنعت فإذا رجل آدم محلوق الرأس كث اللحية مهيب المنظر فسلمت عليه ومددت إليه يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني فخنقتني العبرة لما رأيت من حاله فقلت السلام عليك يا أويس كيف أنت يا أخي فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان من دلك علي قلت الله عزّ وجلّ قال قل له : ﴿**سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا**﴾ قلت يرحمك الله من أين عرفت اسمي واسم أبي فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني قال عرف روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وأن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل قال قلت حدثني عن رسول الله (ص) لأحفظ منك قال إني لم أدرك النبي (ص) ولم يكن لي معه صحبة وقد رأيت رجالاً رواة وقد بلغني من حديثه كبعض ما بلغكم ولست أحب أن أفتح هذا الباب

على لا أحب أن أكون قاضياً أو مفتياً في نفسي شغل قال قلت فاتل علي آيات من القرآن أسمعهن منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية قال فأخذ بيدي وجعل يمشي على شاطيء الفرات ثم قال قال ربي وأحق القول قول ربي عزّ وجلّ وأصدق الحديث حديث ربي عزّ وجل وأحسن الكلام كلام ربي عزّ وجلّ أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . ثم شهق شهقة فأنا أحسبه قد غشي عليه ثم قرأ حتى بلغ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلاّ من رحم الله إنه العزيز الرحيم . ثم نظر إلي فقال يا هرم بن حيان مات أبوك ويوشك أن تموت ومات أبو حيان فإما إلى جنة وإما إلى نار ومات آدم وماتت حواء يا بن حيان ومات إبراهيم خليل الرحمن يا بن حيان ومات موسى نجي الله الرحمن يا بن حيان ومات محمد رسول الله (ص) وعليهم أجمعين يا بن حيان مات أبو بكر خليفة المسلمين ومات أخي وصديقي وصفيي عمر ، واعمراه - قال وذلك في آخر خلافة (عمر رضي الله عنه) - قال قلت يرحمك الله إن عمر لم يمت قال بلى إن ربي عزّ وجلّ نعاه لي وقد علمت ما قلت أنا وأنت غداً في الموتى ثم دعى بدعوات خفاف ثم قال هذه وصيتي لك يا بن حيان كتاب الله عزّ وجلّ ونعي الصالحين من المؤمنين ونعي الصالحين من المسلمين ونعيت لك نفسي فعليك بذكر الموت فإن استطعت أن لا يفارق قلبك طرفة عين فافعل وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وأكدح لنفسك وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تشعر فتموت فتدخل النار يوم القيامة ثم قال اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فادخله على زائراً في الجنة دارك دار السلام ورضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من شيء في الدنيا فاجعله في يسر وعافية وأجعله لما تعطيه من العمل من الشاكرين استودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك لا أراك بعد اليوم تطلبني ولا تسأل عني أذكرني أذكرك وادع لي أدعو لك إن شاء الله تعالى انطلق ههنا حتى

أنطلق أنا هـهنـا فـطلبت أن أمشي معه سـاعة فـأبى علي وفـارقني يبكي وأبكي ثم دخل بعض السكك فكم طلبتـه وسألت عنـه فما وجـدت أحداً يخبرني عنه بشيء . حدثنا بهذه الحكايـة أحمد الشـاهد عن محمـد بن عبـد الله بن محمـد بن جعفـر عن محمـد بن العبـاس بن أيـوب عن يحيى بن محمـد بن السكن عن يحيى بن كثير عن الهيثم بن حـرموز عن حمـران عن سلمان التيمي عن أسلم العجلي عن أبي الضحـاك الجرمي عن هـرم بن حيان . فهـذا يا نفس من بعض أخبـار أويس الذي أحببتيـه لله وفي الله ولولا التطويل لاشبعناك من أخبـاره وأخبار أمثـاله من سـادات التابعين (رضي الله عنهم أجمعين) ولكنك قنعت بهذا القدر فـالتزمي طـاعة الله وطاعة رسوله فـأسلمت إسلامـاً جديـداً الله يثبتها عليـه وأخذت منهـا العهـود التي أخذ النبي (ص) على نسـاء المؤمنـات فـالتـزمت ذلـك كله عـارفة قـدر ذلك ومـا لها في الـوفاء بـه وغدره فهـذا يا ولي أبقـاك الله ما أتفق بيني وبين نفسي بمكـة المشرفـة (حـرسها الله تعالى) ثم أرجـع مـع ولي وصفيي وأخي في الله تعـالى أبي محمد (وفقنا الله وإيـاه) وأقـول أمـا بعـد يا أخي فـإن أكثـر النـاس خـافـوا الله على سيئـات النـاس وذنـوبهم وأوزارهم وآمنوا على ذنوبهم وليس هـذا فعل الـرجل الحـازم والله تعالى يقـول : ﴿قـاتلوا الـذين يلونكم من الكفـار﴾ وأقـرب عـدو لـك وأعـداه عليـك نفسك التي بين جنبيـك فيها شغـل شاغـل للعاقـل وهذا الـزمـان الـذي أنت فيه زمـان شر قلت فيـه لقمة الحـلال وكثر الشـره والكلب في قلوب النـاس فـلا بـطن تشبـع ولا نفس تقنـع ولا عين تـدمـع ولا دعـاء يسمـع فلما قـل الحلال لـو وقع التعفف من المـريد وأخـذ الغـذاء عنـد الاضـطرار لكان بعض شيء يكفيـه وأبشـرك يـا وليي (رضي الله عنه) إني جربت إخواني في هذا الطعام من باب المغرب إلى باب مكـة فما دخـل في بـطني أخلص من طعامـك كنت أجـد لـه مـا لا يمكن وصفـه وذلـك لـطيب النفوس وعـدم تعلق خاطـرك به إلاّ في وقت مـا تعرفـه أنت وابن المـرابط وتعرف سببـه وهذا أعجب مـا تسمع في هـذا الباب ولـه أصـل

يستند إليه في اللحم الذي تصدق به على بريرة وهو حرام على النبي (ص) فلما أهدت منه للنبي (ص) أكله حلالاً محضاً وقال هو عليها صدقة ولنا هدية فألق بالك يا وليي وأحضر ذهنك في هذه المسألة فإنها لطيفة وقد قصدتك بها متحفاً فإنها من أعظم التحف لأنها تعطيك من أسرار وضع الشرع من عند الله في عبيده علماً كثيراً ولقد لقينا من المشايخ والإخوان والنساء ما لو دونت أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين في الأعمال والجد والإشارات وصحة القصد فيا وليي تعال نقم مأتماً للفراق ونندب إخواننا الظاعنين وأنا أنشد لك من بعض أحوال من لقيت فمنهم وهو أول من لقيته في طريق الله أبو جعفر العريني (رضي الله عنه) وصل إلينا إلى أشبيلية في أول دخولي إلى معرفة هذه الطريقة الشريفة فكنت أول من سارع إليه فدخلت عليه فوجدت شخصاً مشتهراً بالذكر فتسميت له وعرف حاجتي منه فقال لي عزمت على طريق الله تعالى فقلت له أما العبد فعازم والمثبت الله فقال لي سد الباب واقطع الأسباب وجالس الرهاب يكلمك الله من دون حجاب فعملت عليها حتى فتح لي وكان بدوياً أمياً لا يكتب ولا يحسب وكان إذا تكلم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع . كان يقيد الخواطر بهمته ويصدع الجود بكلمته لا تجده أبداً إلاّ ذاكراً على طهارة مستقبل القبلة أكثر دهره صائماً أسرته الفرنج وكان قد أعلم بذلك وقال لأهل القفل غداً يؤخذ الكل أسرى فصبحهم العدو فأخذهم عن آخرهم فأكرم مثواه ونظفت له دار حسنة وخدم بها ثم تقاطع مع العلج الذي كان عنده على خمسمائة دينار فجاء عندنا فقيل له نجمع لك من شخصين أو ثلاثة فقال لا إنما أريدها من أشخاص كثيرة لو قدرت أن آخذها من كل إنسان ذرة فعلت فإن الله تعالى أخبرني أن كل نسمة وزنت فيها شيئاً عتقت من النار فاستغنم الخير لأمة محمد (ص) . ومن أخباره أنه قيل له وهو بإشبيلية عندنا إن أهل قصر كتامة يحتاجون إلى المطر فسر إليهم فاستسق لهم لعل الله

أن يسقيهم فخرج لذلك وخرج معه خادمه محمد وبيننا وبينهم البحر ومسيرة ثمانية أيام فقال له بعض أصحابه أدع الله لهم من هنا قال أمرت بالخروج إليهم ، فخرج من عندنا فلما وصل قصر كتامة وأشرف عليه منع من دخوله فاستسقى لهم وهم لا يشعرون فسقاهم الله في الحين فرجع من ذلك الموضع ولم يدخل البلد حتى وصل إلينا فقال لنا محمد خادمه الذي مشى معه لما سقاهم الله ونزلت الأمطار كان الغيث ينزل عن يميننا ويسارنا وأمامنا وخلفنا ونحن نمشي لا يصيبنا منه شيء فقلت للشيخ عز علي حيث لم تصبك رحمة الله عزّ وجلّ فصاح وقال فزت بها يا محمد يا حسرة لو تذكرتها هناك . ودخل عليه رجل ومعه ابنه وأنا إلى جانبه جالس فسلم عليه وقال لابنه سلم عليه وكان الشيخ قد ذهب بصره فقال له الرجل يا سيدي إن ابني هذا من حملة القرآن يحفظه فتغير الشيخ وصار وطرأ عليه حال وقال القديم يحمل المحدث القرآن يحمل ابنك ويحملنا ويحفظ ابنك ويحفظنا فهذا كان من حضوره (رضي الله عنه) وكان قوياً في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم كنت إذا دخلت عليه يقول مرحباً بالابن البار كل ولدي نافق علي وجحد نعمتي إلاَّ أنت فإنك مقربها معترف لا أنساها الله لك سألته ما اتفق له مع الله تعالى في أول بدايته فقال كان قوت أهلي في السنة ثمانية أعدال تينا والعدل مائة رطل فلما جلست مع الله في الخلوة صاحت علي المرأة وسبتني وقالت لي قم وأخدم وسق ما يقوم بأولادك لعامهم فشوشت علي خاطري فقلت يا رب هذه تحول بيني وبينك ولا تزال تتعبني فإن كنت تريد لي مجالستك فأرحني من همها وأن كنت لا تريدني فعرفني قال فناداني الحق في سري يا أحمد أجلس معنا ولا تبرح فما يذهب النهار حتى نأتيك بعشرين عدلاً تيناً قوت عامين فلم تكن إلاَّ ساعة وإذا بصارخ وعلى عنقه عدل من تين هدية فقال لي الحق هذا واحد من عشرين فما غربت الشمس حتى أكمل عندي عشرين عدلاً فسرت المرأة والأطفال وشكرتني المرأة ورضيت عني .

وكـان(رضي الله عنه) كثيـر التفكر مبسـوطاً مـع الحق في عموم أحـواله .
دخلت عليه آخر زورة رأيته فيها (رحمه‌الله تعالى) ومعي جمـاعة فـوجدنـاه
قاعداً فسلمنـا عليه وقـد أراد بعض الجماعـة أن يسألـه فإذا بـه (رضي الله
عنه) قد رفع رأسه وقال خذوا مسألة وقد رأيتك بهـا يا أبـا بكر وأشـار إلي
لم أزل أتعجب من قـول أبي العباس بن العـريف حتى يفني من لم يكن
ويبقي من لم يـزل ونحن نعلم أن من لم يكن فـانيـاً ومن لم يـزل بـاقيـاً
فـإيش قـال أجيبـوا ؟ فلم يكن في الجمـاعـة من أجـابـه فعـرض علي
الجـواب فحضـرتني نفسي بعشـوري على وجـه المسألة دونهم فلم أتكلم
فـإني كنت شديـد القهر لنفسي في الكـلام وعرف مني الشيـخ ذلـك فلم
يعـد علي . وكـان (رضي الله عنه) لا يتجـرد لنـوم في ثـوب ولا يهتـز في
سمـاع فإذا سمـع القرآن تقصف وتصـدعت أركانـه وصليت معه الصبح
في دار ولـيي وصفيي أبي عبد الله الخياط المعـروف بالعصـاد وأخيه أبي
العباس أحمد الحـريري فقـرأ الإمام عم يتسـاءلون فلمـا وصل إلى قـولـه
تعـالى : ﴿ألم نجعـل الأرض مهـاداً والجبـال أوتـاداً﴾ غبت عن قـراءة
الإمـام وما سمعت شيئـاً ورأيت شيخنـا أبـا جعفـر المـذكـور وهـو يقـول
المهـاد العـالم والأوتـاد المؤمنـون المهـاد المؤمنـون والأوتـاد العـارفــون
والمهاد العارفون والأوتاد النبيـون ، والمهاد النبيـون ، والأوتاد المـرسلون
فـرددت إلي والإمام يقـرأ وقال صـواباً ذلـك اليوم الحق فلمـا فـرغنـا من
الصـلاة سألتـه فوجـدته قـد خطر لـه في تلك الآية مـا شهدتـه واضجعـه
إنسـان ليذبحـه والسكين في يده والشيـخ يمد لـه عنقه وهم بـه أصحابـه
ليأخذوه فقال أتركـوه يفعل مـا يؤمر بـه فكان يـأخذ السكين ليمـر به على
حلقـومه فيحـوله الله في يـده حتى رمي به وتـرامى بين يديـه تائبـاً ولـولا
التطويل لأظهـرنا من أمـره وأمر غيـره ممن لم نذكـره عجائب من إشاراته
ومـا وقع بيننـا وبينه من المسـائل الإلهيـة في المواقف وغيرهـا ولنـا فيـه
أبيـات لا نـذكـرهـا الآن . ومنهم (رضي الله عنهم) شيخنـا وإمـامنـا أبـو
يعقوب يوسف بن يخلف الكومي العبسي (رضي الله عنه) صحب أبا مـدين

(رضي الله عنه) ولقي رجالاً بهذه البلاد سكن ديار مصر مدة وتأهل بمدينة إسكندرية رغب في مصاهرة أبي طاهر السلفي عرضت عليه ولاية فاس فأبى . له في الطريق قدم راسخة كان أبو مدين (رضي الله عنه) لسان هذه الطريقة ومحييها ببلاد المغرب يقول في هذا أبو يعقوب هو مثل موسى القوي للسفينة كان كثير الأوراد يخفي صدقته يكرم الفقير ويذل الغني ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه دخلت تحت أمره فربى وأدب فنعم المؤدب ونعم المربي رواه صاحبنا بدر الحبشي وبات عنده . سمعته يقول إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين وألقاه في عليين في لحظة واحدة كان كبير الهمة الغالب عليه طريق الملامتية . قط ما تلقاه إلاَّ مقطب الوجه وإذا أبصر فقيراً تبرق أسارير وجهه رأيته يدني الفقير من نفسه حتى يجلسه على فخذه يخدم أصحابه بنفسه رأيته في النوم وقد انشق صدره وفيه مصباح يضيء كأنه الشمس يقول يا محمد هات فأتيته بحقين أبيضين كبيرين فتقيأ فيهما لبناً حتى ملأهما ثم قال أشرب فشربت . جل ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد المروزي وسآتي ذكره إن شاء الله تعالى أول مسألة ألقاها علي في أول ساعة رأيته فيها وقد أقبل علي بكليته أن قال ما الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلّي حتى يود أن يقف أربعين خريفاً فأجبته على ذلك على حد ما وقع لي فسر بذلك فكنت إذا قعدت بين يديه وبين يدي غيره من شيوخنا أرعد مثل الورقة في يوم الريح الشديد ويتغير نطقي وتتخدر جوارحي حتى يعرف ذلك في حالي فيؤنسني ويطمع أن يباسطني فلا يزيدني ذلك إلاَّ مهابة وإجلالاً كان (رضي الله عنه) يحبني ولا يظهر ذلك لي ويقرب غيري ويطردني ويصوب كلام غيري ويوبخني في المحافل والمجالس ويشتمني حتى كان أصحابي الذين معي ينسبوني إلى قلة الهمة وهم معي تحت نظره وخدمته فما برع من تلك الجماعة غيري ولله الحمد . وكان الشيخ (رضي الله عنه) يقول ذلك . ومما شاهدته منه (رضي الله عنه) ولم أكن

قط رأيت رسالة القشيري ولا غيرها ولا كنت أدري لفظة التصوف على ماذا تنطلق فركب يوماً فرسه وأمرني وآخر من أصحابه أن نخرج إلى المنتيار ـ وهو جبل عال على فرسخ من إشبيلية ـ فخرجت أنا وصاحبي عند فتح باب المدينة وفي يد صاحبي رسالة القشيري وأنا لا أعرف ما القشيري ولا رسالته ، فصعدنا الجبل فوجدناه سبقنا وغلامه ممسك فرسه فدخلنا مسجداً في أعلى ذلك الجبل فصلينا واستدبر القبلة وأعطاني الرسالة وقال لي إقرأ فلم أقدر أن أضم كلمة إلى أخرى والكتاب يسقط من يدي من الهيبة فقال لصاحبي إقرأ فأخذه صاحبي وقرأه وتكلم عليه الشيخ فلم نزل كذلك حتى صلّينا العصر فقال الشيخ ننزل إلى المدينة فركب فرسه وألزمت يدي ركابه فجعل يحدثني بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته (رضي الله عنه) وأنا قد فنيت في كلامه فلا أحس بنفسي وأرفع إليه وجهي في أكثر الأوقات فأراه ينظر إلي ويبتسم ويهمز فرسه فيسرع وأسرع معه ثم وقف وقال لي أنظر ما تركت خلفك فنظرت فرأيت الطريق الذي مشيت كله شوكاً يصل إلى معقد الأزار وشوكاً آخر منبسطاً في الأرض قال أنظر إلى قدميك فنظرت إلى قدمي فلم أر بهما أثراً قال أنظر إلى ثوبك فلم أر أثراً قال هذا من بركة ذكرنا أبا مدين (رضي الله عنه) ألزم الطريق يا بني تفلح وهمز فرسه وتركني .

أخذت منه مسائل كثيرة ورأيت عنده ما لم أر من غيره إذا أعطى المجاهدة للمريد يعملها معه وكذلك للاثنين والثلاثة يعمل مع هذا ومع هذا فتراه لا يفتر . قعدت معه بعد العصر فرآني أتعلق للخروج فقال لي ما شأنك فقلت له علي أربع حوائج أريد أن أقضيها ولي أيام أروم قضاءها وأتعمل فيها ولا أجد الأشخاص الذين الحوائج بأيديهم فتبسم وقال إن تركتني ومشيت ما تنقضي لك منها حاجة فاقعد معي أذكر لك من أحوال أبي مدين (رضي الله عنه) وأنا أضمن قضاءها فقعدت فلما حان وقت المغرب قال لي أخرج الساعة إلى منزلك فإنك لا تصلّي

المغرب حتى تنقضي الحوائج كلها فخرجت والشمس قد غربت فوصلت إلى منزلي ومؤذن المغرب يؤذن فوالله ما أحرمت بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي . وكان من صدقي في صحبته أني اتمناه في بيتي لمسألة تخطر فأراه أمامي فاسأله ويجيبني ثم ينصرف فأخبره بذلك بكرة ويتفق لي معه هذا بالنهار في منزلي إن اشتهيته . ومناقبه وكراماته وإشاراته أكثر من أن تحصى ، فلنضرب عنها في الرسالة صفحاً .

ومن شعري فيه حين فارقته وأنا متوجه إلى مراكش وهو بـ «سيلي قاطن» .

إذا قيل من في الوجود أشرف	يوسف بن يخلف
ربّ المعالي قلب المعاني	أرق شخص قلباً والطف
أكرم من في الوجود كفا	أعظمهم رأفة وأعطف
أثبتهم في النزال جأشاً	أشدهم سطوة واعنف
أكبرهم همة وحالاً	أشدهم للعلا واكشف
أوسعهم في العلوم باعاً	أشرحهم باطناً واعرف
أكملهم نسبة ونعتاً	أرفعهم نصبة وأشرف
أولهم في العلا ذراعاً	أعلاهم غاية واوقف
الطفهم في القلوب معنى	أوصلهم حكمة وأوصف
قد يكسف البدر في علاه	وبدر مولاي ليس يكسف

والقصيدة طويلة أودعتها كتاب «إنزال العيوب على مراتب القلوب» فيما لنا في هذه الطريقة من نظم ونثر خاصة أفادني شيخنا هذا مسألة الوصال وأنا سيد ولد آدم وآدم ومن دونه تحت لوائي والتدبير نصف العيش وإذا أحب الله عبداً ابتلاه وقلب القرآن يس ولم يسبقه أحد إلى هذه المسألة في بلادنا وغير ذلك مما لا أتذكره الآن (فرضي الله عنه وأرضاه) . ومنهم (رضي الله عنهم) صالح العدوي (رضي الله عنه) كان بالله

عـارفاً ومـع الله في كل حـالة واقعـاً تاليـاً لكتاب الله العـزيـز آنـاء الليـل وأطراف النهار ولم يتخذ مسكناً قط ولا تـداوي قط كان يعمـل على مقام السبعين ألفـاً الـذين يـدخلون الجنـة بغيـر حسـاب كـان لا يكلم أحـداً يجـالسه يـأتي عليه أوقـات يدخـل في صلاة الضحى فـلا يزال واقفـاً في الـركعة الأولى حتى يُقـال له قـد زالت الشمس كان إذا قـام للصـلاة في اليوم الشديـد البرد يلقي عنـه ثيابـه حتى يبقى في قميص واحد وسـروال وهـو يتصبب عرقـاً كأنمـا هو في ديمـاس له في صـلاته زئيـر وهمهمة لا يفقه ما يقول لا يدخر شيئاً لغد ألبتة ولا يقبـل ما لا يحتـاج إليه لا لنفسـه ولا لغيره كان يأوي ليلة إلى مسجد أبي عـامر المقـدي صاحبتـه سنين لا أكـاد أعد كـلامه معي من قلتـه كـان في بعض السنين يفقـد من البلد إذا قـرب عيد الأضحى فـأخبـرني فقيـه شـاهـد سن شهـود البلد أنـه يحضـر المـوسم بعرفـات أخبره بـذلك من شـاهده كـان له بنـا تعلق وإلى جهتنا تـأمل انتفعنـا به ، أخبـرني بـأمـور في حقي ممـا يتفق لي في المستقبـل فرأيتها كلها ما غادرت منها كلمة خدمة أبو علي الشكـاز لم يزل بـإشبيلية على هذه الحالة أربعين سنة حتى مات فغسلناه ليـلاً وحملناه على رقـابنا إلى مقبـرته وتـركناه وانفصلنـا عنـه حتى صلّى عليـه ودفنـه النـاس لم أر بعـده على حالـه مثله كانت حـالته تشبـه حالـة أويس ، وله أخبـار كثيـرة يطول ذكرها .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله محمد الشرقي (رضي الله عنه) كان يلازم الصلوات الخمس بجامع العـديس بإشبيليـة تورمت قـدماه من طول القيام كـان إذا وقف في الصلوات تنحدر دمـوعه على بيـاض لحيته كـأنها اللؤلؤ سكن مـوضعاً نحـو أربعين سنة مـا أوقد فيـه سراجـاً ولا ناراً بالغ في العبـادة جهده لقيني يـوماً وأنـا واقف على معتوه عنـدنا من جملة الناس فلم أشعر بـه حتى أخذ بـإذني وأخرجني من الحلقـة وقال لي أنت تفعل هذا فخجلت ودخلت معه الجامـع كان يخبـرني بالشيء قبـل كونـه فيكـون كما يخبـرني لم يتخذ قط في المسجـد مـوضعـاً معيناً ولا صلّى

قط في موضع واحد من المسجد صلاتين لا يتجرأ أحد عليه أن يقول له أدع لي فالذي يريد أن ينتفع بدعائه يراقبه إذا دخل المسجد أن يصلّي فيه فيحرم بالصلاة إلى جانبه فإذا جلس يدعو صاحب الحاجة بما يريده ويعلن فيقول الشيخ آمين خاصة هكذا كانت دعوته وسألته أنا في الدعاء فدعا لي وقد بدأني بالدعاء الحمد لله وكلمني قبل أن أكلمه فإني كنت أهابه وأنتفع به وعاينت من بركاته أنه لما اقترب موتي أخلى مسكنه وقال أريد سفراً فخرج إلى القرية التي كان منها في الشرق على فرسخين كلما وصل إليها مات بها (رحمه الله تعالى) ونظر يوماً إلى غلام صغير على رأسه مكتل فيه رازيانج ورآه متحيراً فأشفق عليه واستدعاه والناس يرونه فقال ما شأنك يا ولدي قال يا عم مات أبي وترك أولاداً صغاراً وليس لنا شيء فاصبحنا يومنا هذا وليس عندنا ما نأكل وكان عند والدتي هذا الرازيانج فقالت يا ولدي خذه وبعه وسق لنا به قوت اليوم إن كفى فبكى الشيخ وأدخل يده في المكتل وأخذ منه حبات وقال هذا شيء طيب يا صبي قل لأمك عمي الشرقي أخذ منه قليلاً تجعلني منه في حل فأخذ بعض التجار المكتل وقال شيء أخذ منه هذا الشيخ حلت فيه البركة فمشى إلى أم الصبي ودفع لها في المكتل سبعين ديناراً مؤمنية ، وإنما قصد الشيخ هذا رحمة بهم (رضي الله عنه) .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو يحيي الصنهاجي (رضي الله عنه) كان قد عمي وقد أسن عاشرته فرأيته مجتهداً في العبادة وله قدم راسخة في الرياضات والإشارات كبير الشأن ما رأيته قط يقعد إلاّ على كرسي صغير مات عندنا بإشبيلية (رحمه الله) وظهرت له كرامات بعد موته فإن الجبل الذي دفناه فيه عال لا يخلو من الريح أبداً فسكن الله الريح في ذلك اليوم واستبشر الناس وباتوا على قبره يقرءون القرآن فلما نزل الناس هبت الريح على عادتها . كانت صحبتي إياه شهوراً قبل موته كان من أهل السياحات ملازماً للسواحل مؤثراً للخلق (رضي الله عنه) .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو الحجاج يوسف السبريلي - قرية

بالشرق على فرسخين من إشبيلية ـ كان أكثر إقامته بالبادية صحب أبا عبد الله بن المجاهد كان يعيش من عمل يده ، دخل الطريق قبل الحلم ولم يزل عليها حتى مات ، كان ابن المجاهد إمام هذه الطريقة ببلادنا يقول التمسوا الدعاء من أبي الحجاج السبريلي وكان يكبره إذا زاره أخبرني أبو الحجاج هذا بنفسه قال كانت زيارتي لابن المجاهد شيخنا كل يوم جمعة فزرته في يوم جمعة على عادتي فوجدته واقفاً على البنائين بحائط داره التي يسكن بها وكان قد تهدم فبناه ليستر عياله فسلمت عليه فقال خالفت عادتك يا أبا الحجاج فقلت له بل هو يوم الجمعة فضرب يداً على يد وصاح أواه هذا ما فعل الضروري الذي لا بد منه فكيف لو زدنا وناح وبكى على نفسه وتحسر على وقته وكان أبو الحجاج متى ذكر لي هذه الحكاية يبكي ويقول هكذا تكون الرجال يبكون على فوات حظوظهم من الحضور مع الله ، كان شيخنا هذا أبو الحجاج كبير الشأن لم يزل يأكل من عمل يده حتى ضعف عن العمل فصار يأكل من الفتح وكان لما اسن وثقل عن الحركة يبكي ويقول يا بني فتح الله على باب قصد الناس إلي وزيارتهم وعرض بي للفتن ومن أنا ويا ليتني سلمت ووددت أن أجد قوة حتى أزور الناس في ديارهم ولا يجيئون إلي وكان رحمة للعالم وكان إذا دخل عليه عمال سلطان يقول لي يا بني هؤلاء هم أعوان الحق المشتغلون بأسباب العالم ينبغي للناس أن يتفرغوا للدعاء له أن يجري الله الحق على أيديهم ويعينهم وكان يقبل من السلطان ، ما دخل عليه أحد قط وفي بيته مأكول إلا جعله أمام الداخلين كثروا أو قلوا وكثر الطعام أو قل لا يترك شيئاً يكون له ألبتة ودخل عليه جماعة فقال لي يا بني أنزل لهم المكتل فأنزلته فلم أجد فيه غير ملىء الكف حمصاً فجعلته بين أيديهم . رأيت له بركات كثيرة كان ممن يمشي على الماء وكان له بداره بالقرية بئر يستقي منها لوضوئه فرأينا بجانب البئر شجرة زيتون قد علت وأورقت وحملت جسمها غليظ فقال له صاحبي يا سيدنا لم غرست هذه الزيتونة في هذا

الموضع وضيقت بها على البئر فالتفت إلينا ونظر وكان قد انحنى ظهره من الكبر فقال في هذه الدار ربيت من صغري ووالله ما رأيت قط هذه الزيتونة إلّا الآن فكان بهذه المثابة من الاشتغال بقلبه ما دخلت قط عليه ولا غيري إلّا وجدته قارئاً في المصحف لم يمسك كتاباً غير المصحف حتى مات وكان له هرة سوداء لا يستطيع أحد أن يمسكها ولا يلقي يده عليها وكانت ترقد في حجره وكان يقول لي لهذه الهرة تمييز لأولياء الله فهذا العذار الذي ترى فيها ما هو سدى قد جعلها الله تأنس بالأولياء فشاهدتها مراراً عنده فيدخل إنسان فتحك خدها في رجله وتتعلق به ويدخل آخراً فتفر منه ولقد دخل عليه شيخنا أول مرة دخل عليه ـ يعني أبا جعفر العريني (رحمه الله تعالى) الذي ذكرته أولاً ـ وكانت الهرة في البيت الآخر فخرجت من البيت ونظرت إلى شيخنا أبي جعفر وفتحت يديها على عنقه فعانقته ومرغت وجهها على لحيته فقام إليه أبو الحجاج حتى أجلسه ولم يقل شيئاً فأخبرني أبو الحجاج أن ذلك الفعل ما رأيته قط فعلته مع غيره ولم تزل عنده حتى خرج من عنده وجاءه رجل وأنا عنده في جماعة وفي عينيه وجع شديد يصيح منه مثل النفساء فدخل عليه وقد شق على الناس صياحه فاصفر وجه الشيخ وقعد وقلع يده المباركة ووضعها على عينيه فسكن الوجع من جبينه واضطجع الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس وكان له صاحب من صالح مؤمني الجن أبداً لا يبرح من عنده دخلت عليه مع شيخنا أبي محمد (رضي الله عنهما) فقلت يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين فتبسم الشيخ وقال عجب أمس كان عندنا أبو مدين (رضي الله عنه) نعم الشيخ وأبو مدين إذ ذاك ببجاية وبينه وبينهما مسيرة خمسة وأربعين يوماً فكان كشفاً بينهما وكانت هذه الحالة كثيراً تتفق لي مع أبي يعقوب فإن أبا مدين كان قد سكن عن الحركة واحفظ من أخباره ما شاهدته كثيراً تضيق هذه العجالة عنه ، وهكذا كل من أذكره وإنما أذكره ليعلم أن الزمان لا يخلو من الرجال .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله محمد بن قسوم (رضي الله عنه) صحب ابن المجاهد وقرأ عليه حتى مات واستخلفه في موضعه فجرى على حالته وزاد فجمع بين العلم والعمل مالكي المذهب قائلاً بشرف العلم ومرتبته صحبته وقرأت عليه ما يصلح لي في طهارة وصلاة وسمعت عليه كان دعاؤه في خاتمة أبداً اللّهم اسمعنا خيراً واطلعنا خيراً ورزقنا الله العافية وأدامها لنا وجمع الله قلوبنا على التقوى ووفقنا لما يحبه ويرضاه وخواتم البقرة وهو الدعاء الذي ألتزمنا في مجلسنا ورأيت النبي (ص) في المنام في الحرم وقارىء يقرأ عليه صحيح البخاري فلما فرغ دعا بهذا الدعاء فزدت عليه غبطة كان (رضي الله عنه) من الجد والاجتهاد غاية وكان معتدل العبادة ألتزم وظائف عمر بها أوقاته لم يزل محافظاً عليها حتى الآن كان كل ليلة يحاسب نفسه فإذا وجد خيراً يحمد الله وإذا وجد غير ذلك يقابله بما يجب له من الاستغفار والتوبة وما جرى مجرى ذلك ، وكان يعيش من خياطة القلنسيات فقعد يوماً وقد فرغت نفقته فأخذ المقص وأسباب شغله فسمع الباب قد فتح ثم أغلق فخرج فلم يجد أحداً وقد رمي له بستة دنانير فأخذها ودخل ورمى بالمقص في البئر وقال الله يدبر عيشي وأنا أدبره واتعني فيما ضمن لي الرزق يطلبك لا أنت تطلبه ، فلازم باب الفتح وترك الحرفة إلى الآن قسم ليله ونهاره على ما أقول لك إذا صلّى الصبح ذكر الله حتى تطلع الشمس فيركع ركعتين ويدخل منزله فيأخذ كتبه ويخرج إلى الطلبة فيقرءون العلم إلى ارتفاع النهار ويدخل منزله فإذا لم يكن صائماً أخذ شيئاً من الغذاء وصلّي ضحاه ونام يسيراً ثم يقوم فيسبغ الوضوء فإن كان له تقييد قيده وإلاّ ذكر الله فإذا جاء الظهر فتح المسجد وأذن ودخل مسجده يتنفل ويذكر الله إلى وقت دخول الصلاة متمكناً يخرج إلى المسجد يقيم الصلاة لا يتنفل يتمايل في محرابه تمايل النشوان مما يجد في باطنه من الوجد بكلام الله فإذا سلم خرج وتنفل راتبة الظهر وأخذ المصحف ففتحه على ركبته ومشى

بيديه على حروفه وعيناه في المصحف يرتل القرآن بحنان وتدبر حتى يتم خمسة أجزاء وقد حان العصر فأذن ودخل مسجده يتنفل حتى تجتمع الجماعة فيصلّي بهم ثم يدخل منزله يذكر الله حتى تجيء المغرب فيخرج يؤذن ويصلّي ويدخل فيجيء بين العشاءين حتى يجيء وقت العشاء أو قربها اسرج القنديل في المسجد وأذن ودخل منزله يتنفل حتى يجتمع الجماعة يخرج يصلّي بهم ثم يغلق باب المسجد ويدخل منزله ويحاسب نفسه في حركاته وألفاظه وجميع ما يعلم أن الملك يقيده عليه فتكون حالته على حسب ما يجده في صحيفته ثم يقوم إلى سريره فينام فإذا مضى من الليل جزء فإن كان أصاب أهله أغتسل ودخل مصلاه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد أطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى لم تكن عنده فهمه الله إيّاها من القرآن قال الله تعالى : ﴿واتقوا الله ﴾ ويعلمكم الله فإذا طلع الفجر فتح المسجد وأذن ودخل منزله فركع الفجر وقعد في منزله يذكر الله فإذا اسفر خرج فصلى بالناس هكذا ديدنه ودأبه لا يتأدم في الجمعة إلاّ مرتين في ليلة الاثنين وليلة الجمعة سني الحال والمقام كثير المعرفة قل أن يرى مثله جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله وبدر الحبشي وصلّى خلفه .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عمران موسى بن عمران المارتلي ، أنشدني لنفسه في شعر مجنس يخاطب نفسه :

فأنت ابن عمران موسى المسيء ولست ابن عمران موسى الكليما

هو (رضي الله عنه) قد أخذ نفسه بالشدائد لزم بيته منذ ستين سنة لا يخرج جرى على طريق الحارث بن أسد المحاسبي لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجة لنفسه ولا لغيره رأيت له رؤياً تدل على انتقاله من مقامه إلى ما هو أعلى منه فقال لي بشرتني بشرك الله بالجنة فلم يكن

إلّا يسيراً ونال المقام الذي رأيت له فدخلت عليه اليوم الذي حصل فيه والسرور باد على وجهه فقام إلي وعانقني فقلت له هذا تأويل رؤياي من قبل وبقيت دعوتك أن يبشرني الله بالجنة فقال يكون إن شاء الله تعالى فما تم الشهر حتى بشرني الله بالجنة بإيجاد آية منه ظهرت لي مصدقة لدعوى المبشر عن الله تحدى بها على صدق بشراه لي بالجنة فأنا أقطع بها ولا أشك ألبتة في أني من أهل الجنة كما أنه لا شك في نبوة محمد (ص) غير أنه لا أدري أتمسني النار أم لا عافانا الله وإياكم وأرجو من كرمه أن لا يفعل . ولهذا الشيخ شأن كبير ومعرفة تامة وأدب عظيم مقبوض في عموم أحواله حسن البشاشة لزواره لنا معه مواطن عجيبة كانت همته متعلقة بالله في حفظنا وعصمتنا من الفتن والرجوع فقضي حاجته في ذلك وشهد لي بها وبشرني وقال لي منه إلي بمحضر صاحبي عبد الله بدر الحبشي كنت أتخوف عليك جداً لصغر سنك وعدم المعنى وفساد الزمان وما ظهر لي في أهل الطريقة من الفساد وهم الذين ألزموني العزلة لما عاينت من فساد الأحوال ، فالحمد لله الذي أقر عيني بك . . . أنشدني من شعره كثيراً وطلب مني أن أقيد له من شعري ففعلت وقرأته عليه فسر به .

فمما كتبت له أبياتاً أستحسنها جداً ووقعت منه بموقع ، فكان منها :

تركت هواي في هواه فلا هوى	وكل محب لم يكنه فقد هوى
واجريت طرف الأنس في حلية الفنا	وجزت بحار الشوق في مركب الهوى
وألقيت موسى الوصل في ساحل الرضا	ونـاداني الحق المبين من الهوى
إلّا فأكتبوا عبدي من العارفين بي	وهذا ندا الحق في موضع السوى
فراجعته لما سمعت نداءه	بان لبس لي هم ولا بغية سوى
وصالك يا مولى الوذ بقربه	فإني أخاف من سطوة البين والنوى
فأمنني من كل شيء وقال لي	ظنونك حسني : إن للمرء مانوى

ولا أذكـر من القصيـدة اليـوم إلاّ هـذا وخـرجت عني منهـا أبيـات ذكرتها في كتاب «إنزال الغيوب» ومن ذلك أيضاً :

مذ حل كاتب حب اللّه في خلدي — وخط سطراً من الأشواق في كبدي
ذبت اشتيـاقـاً ووجـــداً في محبتـه — فآه من طول وجـدي آه من كمدي
يا غاية السؤل والمأمول يا سندي — شـوقي إليك شـديـد لا إلى أحـدِ
يدي وضعت على قلبي مخافة أن — يشق صـدري لمـا خـانني جلدي
مـا زال يـرفعهـا طـوراً ويخفضهـا — حتى جعلت يدي الأخرى تشد يدي
مـر الفؤاد عن الجثمـان مـرتحـلاً — إلى الحبيب الذي يغني وليس يدي
مـــا زلت أطلبـه وجـــداً وأنـد بـــه — بـعبـــرة حـيـــزتهـــا زفـــرة الـخلدِ
حتى سمعت نـداء الحق من قبلي — من كـان عندي لا ينـظر إلى أحـدِ
فمت بوجدك أو مت إن تشأ طربـاً — فـإن قلبـك لا يلوي على الجسـدِ
فقلت والحب يـطويني وينشـرني — وصحت من شدة الأشواق : واكبدي
لمـا شاهـدتك يـا من لا شبيـه لـه — لا فـرق عندي بين الفـرد والعـددِ

إلى آخـــر الأبيـات ، فـــإني لا أذكـرهـــا الآن . دخلت على هـذا الشيخ فقال يا بني عليك بنفسـك فقلت له إن شيخنـا أحمد دخلت عليـه فقـال لي يا بني عليـك بالله ، فمن أسمـع ؟ فقال يـا بني أنـا مـع نفسي وأحمد مع ربه وكل واحد منا دلـك على ما يقتضيـه حالـه فبارك الله لأبي العباس وأوصلني إليه فهـذا ما عـاينت من إنصافـه . كان يبـاسطني غـاية البسط فـلا يزيـدني ذلك إلاّ مهـابـة وتعـظيمـاً وكـان يتعجب من حفـظي الأدب معه في حين بسطه فيـرجع من المبـاسطة إلى بـاب العبودية فحين أباسطه لسر عجيب أن تأملته يا ولي وقفت عليه .

ومنهم (رضي الله عنهم) الأخـــوان الشقيقـان أبـــو عبـــد الله محمـــد الخياط وأبو العبـاس أحمد الاشبيليني (رضي الله عنهما) صاحبتهمـا زمانـاً بإشبيلية إلى عام تسعين وخمسمائة خرجا يريدان الحج وهـو العام الـذي رحلت فيه إليك ووصلا مكة فأما أحمـد فجاور بهـا سنة وخـرج إلى مصر

ودخل طريق الملامتية وأما محمد فجاور بها خمسة أعوام ولحق بأخيه بمصر فأقمت معهما وتأبى عبد الله زمانة فصمت معهما رمضان وخرجت إلى القدس الشريف ومشيت إلى مكة (شرفها الله تعالى) وأقمت بها إلى الآن وفي قلبي من فراقهما لهيب أما أبو عبد الله فإنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمن طويل وكانت له والدة وكان باراً بها (رضي الله عنه) لزم خدمتها حتى ماتت غلب عليه الخوف حتى إذا صلّى يسمع لقلبه دوي على بعد سريع الدمعة غزيرها طويل الصمت دائم الحزن كثير الفكرة شديد التأوه ما رأيت قط أخشع منه لا تراه أبداً إلاّ مطرقاً ضارباً بعينه الأرض لا يمازح أحداً ولا يعاشره بريء من المداهنة قوي في المناصحة لا يستحيي في الحق من أحد ولا تأخذه في الله لومة لائم لا يداري ولا يمار ، ابتلي بالفقر والضراء فصبر له شأن عجيب وهمة رفيعة كنت أتعشق به وأنا صغير وكان إذا دخل المسجد هابه كل من رآه ما عاينته قط يكلم أحداً مبتدئاً ولا يجيب إذ تكلم إلاّ في ضرورة يحفظ دينه حفظاً ما تمنيت من كل من رئيت أن أكون مثله إلاّ هو ، وآخيته لما رجعت إلى هذه الطريقة وفرح بي ولازمته وانتفعت بآدابه وأخذت من خلقه ، كان يحتمل الأذى ويكف جفاه صدوق الرؤيا كثير النجوى ليله قائم ونهاره صائم لا تجده فارغاً قط يحب العلم وأهله كنا قد اجتمعنا أربعة أنا وهو وأخوه ورابع لنا على السواء في كل ما يفتح به علينا ، فلم أر أياماً قط في عمري أحسن من تلك الأيام رأيت من همته (رضي الله عنه) إن كان بين منزلي ومنزلهم بعد كثير فأذن بالعتمة وقد وجدت في خاطري الإنزعاج إلى الوصول إليه والرجوع إلى منزلي : الأمران معاً ، فحرت كيف أجمع بين الخاطرين وكنت أعمل على أول الخاطر فاشتددت إليه عدواً إلى أن دخلت عليه فوجدته واقفاً في وسط الدار وهو مستقبل القبلة وأخوه أحمد يتنفل فسلمت عليه فتبسم وقال لي ما الذي أبطأ بك قلبي متعلق بك عندك شيء وكان في جيبي خمسة دراهم فدفعتها له فقال جاءنا فقير يُقال له علي السلاوي

وما عندنا شيء ورجعت اشتددت إلى موضعي . كان يخدم الفقراء بنفسه ويؤثرهم بالطعام واللباس وكان رحيماً عطوفاً رؤوفاً شفيقاً يرحم الصغير ويعرف شرف الكبير يعطي كل أحد حقه له الحق على الناس وليس لأحد عليه حق إلاّ الله ، على هذا فارقته وعلى هذا وجدته الآن وعليه تركته فالله يجمع بيني وبينه في عافية .

وأما أخوه أبو العباس أحمد وما أدراك ما أحمد فجمع الفضائل واجتنب الرذائل عرف الحق فلزمه وكشف له عن السر فكتمه هو ممن ينادي من وراء حجاب قوي المجاهدة كثير المساعدة وطيء الأخلاق حسن المعاشرة سمح الخليقة موافق فيما يرضي الله مخالف لما لم يرض الله لزم الاسم فسما وعمر ذكره كل أرض وسما ، تراه كأنه ذاهل سريع الحركة كأنه مطلوب بثار يخضع تحت وارد الأسرار كثير المكاشفة كنا إذا أخذنا في مسألة يغيب عنا ثم يرجع فيخبرنا بوجه من وجوه ما نحن فيه ، هذا الحال له مستمر إلى الآن لزم خدمة أخيه لم يخدم غيره فكل ما هو فيه من بركة أخيه لقي شيخنا العريني وأبا عبد الله بن جنيد وجماعة من أصحابنا أراد صحبتنا إلى مكة لولا مرض أخيه ، ولو كان صحيحاً رحلنا بجملتنا حلت بمصر المسغبة والوباء الذي هلك فيه أهلها فمشي يوماً فرأى الأطفال الصغار الرضع يموتون جوعاً فقال يا رب ما هذا فنودي يا عبدي هل ضيعتك قط قلت لا قال فلا تعترض هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم أولاد الزنا، وهؤلاء هم قوم عطلوا حدودي فأقمت عليهم حدودي فلا يكن في نفسك من ذلك . ثم سري عنه فبقي راضياً بتلك الحالة للخلق وعنده من هذه المخاطبات كثير وأما الإيثار وتوسيعهما على الخلق وتضييقهما على أنفسهما فلا أحد فوقهما في ذلك ، جمع الله بيني وبينهما في عافية ولا فرق بيني وبينهما بعد ذلك .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله محمد بن جمهور (رضي الله عنه) كان من أقران أبي علي الشكاز وأبي عبد الله الخياط الذي ذكرناه

في السن والحال وكان مجتهداً في العبادة وكـان يقرأ القـرآن والعربيـة لم يقـرأ شعراً قط أخبرني أبو الحسن العثماني قـال كنت وأنـا صغير أقـرأ القـرآن عليه فسمـع دفاً يضـرب فجعل أصـابعـه في أذنيـه فسكت فقعـد سـاعة ثم قـال لي هذأ هـذأ الدف أم لا فقلت لا فلمـا استمر ذلـك قـام وأصابعه قـد سـد بهـا أذنيـه وانصـرف إلى داره وأرسـل إلي فجئت إليـه ودخلت عليـه وأتممت عليه جـزئي . كان (رحمه الله تعالى) إذا سمـع من يقـرأ عشراً في المسجـد ليسأل بـه أو يسمع سـائـلاً في المسجـد يسـد أذنيـه كـان من الـراكعين السـاجـدين حتى قبضـه الله وكـان قـوي القلب ضعيف البدن مصفر اللون شديداً على نفسه فيقال لـه أرفق عليها فيقـول للرفق أجهد وكان يقـوم إلى حزبـه من الليل فيقـوم حتى يسقط من قامتـه ويضـع خده لينـام فيقول يـا خد إنـك أن توسـد ليناً وسـدت بعد المـوت صم الجندل ، ثم يثب كأن أفعى قـد لدغتـه إلى مصلاه فلا يزال هكـذا حتى يصبح فلقد مات وأنا في خـدمة أبي يعقـوب الكوفي فـأخذه الـذي أنزله في القبر وجعل الجنـدل تحت خده فعلمت أن الله صـدقه في قـوله يـا خد إنـك أن توسـد ليناً وكـان (رحمه الله) كثيـر النفـور من الخلق يحب الخلوة والعزلة ورعاً زاهداً عارفاً بـالله واقفاً مـع الله شديـد المعاملة طلبـاً للمـواصلة يحب أهل الله أهـل القرآن تـوفاه الله صغيـر السن في عنفوان شبابه ونار اجتهاده يقول لنفسه لا زال دأبي ودأبـك هذا حتى أمـوت ، ما فاقه أحد في العبادة .

ومنهم أبـو علي الشكاز (رضي الله عنه) كان عنـدنـا بـإشبيليـة وبهـا مات وهو الذي خدم صالحاً العدوي شيخنا حتى مـات كان كثير الدمعـة لا تـزال عينـه تهـطل أبـداً كـان لي عم أخـو والـدي وكـان من أهـل الله وخاصته وكـان أبو علي يـلازمه فكنت أبيت معـه فألقي الحصيـر الجديـد لـه يصلّي عليها فتجـري دموعـه قـد تعفن كله وانتشر عـاشـرتـه من وقت دخولي في هذه الـطريقة حتى مـات كان مـولعاً بـالنكاح جـداً لا يستغني عنـه فأراد شيخنـا السبريلي يـأخـذه لإبنـة أخيـه فمشت إليـه أم الـزهـراء

فقالت يا أبا علي إن أبا الحجاج يحب أن يعطيك بنت أخيه وكان هذا يوم الأحد ، فقال أنا كنت من أحب الناس في مصاهرته ولكن قد تزوجت وبعد خمسة أيام من يومنا هذا أدخل بزوجتي عروساً فقالت له بنت من تزوجت قال لها ستري ذلك الوقت ، وانصرف إلى منزله ولازم فراشه حتى أنقضت خمسة أيام فمات (رحمه الله تعالى) . كان يمد يده إلى ما وجد من نبات الأرض من أعظمه مرارة فيطعمك إياه كأنه حلواً رأيت له بركات كثيرة انتفعت بصحبته كان قد عمل على الأربعين السهلية وكان شجاعاً يعيش من عمل يده رآه أخوه بعد موته فقال ما فعل الله بك فقال يعطيني كل يوم عمل ثمانية أيام كان دائم الصيام والمواصلة كثير القيام منقبضاً عن الناس غير مجالس لهم يحن إلى جنسه كان مليح الدعابة يمزح ولا يقول إلاّ حقاً وكان يعجبه المزح بالحق ويكره الكذب وأهله ولا يحتمله خرج يوماً إلى دور بني صالح بجلود له لينقعها في النهر ويبسطها في الشمس فمرت به امرأة من أهل إشبيلية وفيهم وفي نسائهم حلاوة وظرافة فقالت لصاحبتها تعالي يا أختي نمازح هذا الرجل فإنه شكاز - والشكاز عندنا المشتغل بهذه الجلود الرقاق على نوع ما ويبيضها ويلينها كثيراً بعد شدتها فاتخذ أهل البلدة هذه اللفظة لفظة الشكاز لقباً للرجل - لا يقوم بالنساء أي لين العضو مثل الجلد الذي يعمله فوقعت عليه وهو يذكر الله تعالى وكان هو كثير الذكر لا يفتر فقالت السلام عليك يا أخي فقال عليك السلام ورجع إلى ذكره فقالت له ما صنعتك وما حرفتك فقال لها خل عنك هذا وعلم ما تريد فقالت له لا بد من هذا فتبسم وقال لها أنا رجل أبل اليابس وألين الشديد وانتف الشعر فولت وهي تضحك وقالت أردنا أن نرميه فرمانا ، وكان جليل الشأن سليم الصدر ما أضمر شيخنا لأحد قط لا يعلم ما الناس فيه وما يتخيل أن في الوجود من يعصي الله .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو محمد : عبد الله بن محمد بن العربي الطائي وهو عمي شقيق والدي دخل هذه الطريق في آخر عمره على يد

صبي صغير لم يدر ما هذا الطريق دخله وهو في عمر الثمانين فلازم المجاهدة والسواحل حتى برع فيه كانت له في كل يوم ختمة لا زمة يهب نصفها لذلك الصبي الذي رجع على يديه ، بصره ذلك الصبي بالطريق وكان (رحمه الله) يجلس في البيت فيقول طلع الفجر فسألته من أين تعرف ذلك فقال يا بني أن الله يوجه ريحاً من تحت العرش تهب في الجنة فتخرج بريحها عند طلوع الفجر يشتمها كل مؤمن في كل يوم . أصابته أدرة كبيرة فكان يجعلها أمامه مثل المخدة الكبيرة وكان له ولد خلف قد أفرح قلبه فدعا عليه فمرض وكان يسأل الله أن يقدمه أمامه وحينئذ يموت فمات ابنه قبله فدفنه وقال الحمد لله إني أعيش بعده أربعة وأربعين يوماً وأموت . فعاش كما قال ومات ولما كانت ليلة وفاته قعدنا عنده بعد صلاة العشاء وهو مستقبل القبلة فوجد بعض راحة وأدرته قد عظمت فقال لنا استريحوا وارقدوا فأخذنا مضاجعنا فقمت إليه في وقت السحر فوجدته قد فاضت نفسه (رحمه الله تعالى) وما شاهد أحد موته وطلبنا تلك الأدرة فلم نجد منها شيئاً ، فقلنا لعل كانت رياحاً وبقي الجلد فإذا به مثل جميع الناس ما عنده شيء فعجبت أن ستره الله وأخفاه . كان يخبرنا بعجائب . كان عمره من وقت رجوعه إلى هذه الطريق إلى أن مات ثلاثة أعوام خاصة . مات قبل أن أدخل هذه الطريق .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو محمد عبد الله بن الأستاذ المروزي خدم الشيخ أبا مدين وكان الشيخ يسميه الحاج المبرور وحج صحبة عبد الرزاق ، صاحب بمكة أبا عبد الله بن حسان طلب ابن حسان أن يعطيه ابنته رغبة فيه فأبى أن يأخذها مخافة أن لا يقوم بحقها وكان الشيخ أبو مدين يحبه جداً قال له يوماً يا أبا عبد الله كبر على دعائي الناس إلى الله ولا يجيب أحد وأريد أن أصطفيك لنفسي وتخرج معي إلى بعض هذه الجبال فالزم مغارة تصحبني فيها إلى أن أموت قال ففرحت بذلك وعلمت أن لي عند الله مكاناً فلما كان الليل قال عبد

الله نمت فرأيت الشيخ في النوم إذا تكلم مع الناس صار شمساً وإذا سكت صار قمراً فقصصتها عليه بكرة فتبسم وقال الحمد لله يا ولدي أريد أن أكون شمساً فإن الشمس تنفي كل ظلمة وتكشف كل كربة .

كان هذا عبد الله له همة فعالة وصدق عجيب . سافر من عند الشيخ أبي مدين إلى الأندلس بسبب والدته فأودعه الشيخ أبو مدين سلامه إلى أبي عبد الله الشيخ المسن بمدينة «المرية» المعروف بالغزال من أصحاب ابن العريف من أقران أبي مدين وأبي الربيع الكفيف الذي كان بمصر وعبد الرحيم الذي كان بقنا وأبي النجا الذي كان بجزيرة الذهب(رحمهم الله تعالى) فلما وصل إلى المرية قصد إلى الشيخ أبي عبد الله فوجد أصحابه قعوداً فقال لهم استأذنوا لي على الشيخ فقالوا الشيخ نائم في هذه الساعة ولم يقبلوا عليه فعز عليه ما هم فيه من كثافة الحجاب حيث لم يعرفوه فقال لهم أن كنت جئت إليه في الله فالله يوقظه الساعة فإذا الباب فتح والشيخ قد خرج يمسح النوم عن عينه فقال أين هذا الذي جاء ، فسلم عليه وأكرم نزله . وكان الغالب على أبي محمد البسط وكان أصحاب الشيخ مقبوضين فعندما ودعهم وانصرف قال له أصحاب الشيخ لو انقبضت يا أبا محمد من هذا البسط الذي أنت فيه فقال لهم البسط ما هو؟ فقالوا رحمة قال والقبض ما هو قالوا عذاب فقال اللهم لا تنقلني من رحمتك إلى عذابك فخجلوا وانصرف عنهم . ومن أخباره (رضي الله عنه) أنه لما وصل إلى غرناطة نزل عند الشيخ أبي مروان وكان قد عرفه عند أبي مدين وقد رأى أبو مروان عند الشيخ أبي مدين في حق رجل مرض منهم فأخذوا عنه مرضه وحملوه فاستراح من حينه فأخبر أصحابه بغرناطه فلما وصل شيخنا عبد الله المروزي إليها قال أبو مروان والناس قد اجتمعوا من أجله في الدار وقد جعلت بين أيديهم مائدة وعليها مجبنات بعسل وكان ابن صاحب الدار قد مشى في السحر إلى قرية له قريبة من البلد فتأسف أهل المجلس لما لم يحضر معهم الطعام ابن صاحب الدار

فقال لهم أبو محمد المروزي بعدما أكل وشبع وأكل الناس إن شئتم أكلت عنه هنا ويشبع هو في قريته من هذا الطعام بعينه فارتابوا من كلامه في باطنهم وظاهرهم تخيل ذلك جملة فقال له أبو مروان بالله يا أبا محمد أفعل ذلك فقال بسم الله وابتدأ يأكل كأنه ما أكل شيئاً حتى وقف وقال قد شبع وأن زدت عليه أكثر من ذلك يهلك فبهت أهل المجلس وعزموا أن لا يبرح أحد منهم حتى يصل ذلك الرجل الذي أكل عنه فلما كان عشية ذلك اليوم دخل عليهم من القرية فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا نراك جئت بزادك الذي حملته معك ما أكلت منه شيئاً فقال لهم يا إخوتي اتفق لي اليوم شيء عجيب أنا عندما وصلت إلى القرية وقعدت فإذا أنا أحس بمجبنات بعسل تنزل في حلقي فتستقر في معدتي حتى شبعت ولو زادت علي أهلكتني وأنا حتى الآن شابع منها اتجشأها فتعجب القوم وفرحوا أن رأوا رجلاً أخبرنا بالمسألة كيف وجدت ، أخبرني بها بدار عبد الله الشكاز الباعي الشخص الذي أكل عنه فشبع ومعي صاحبي عبد الله بدر الحبشي ونحن في جماعة ونأسف وقال من مثل عبد الله المروزي ما رأينا مثله ولقد أطلعني الله عز وجل ليلة على المقامات ومشي بي عليها حتى وصلت مقام التوكل فرأيت شيخنا عبد الله المروزي في وسط ذلك المقام والمقام يدور عليه كدوران الرحا على قطبها وهو ثابت لا يتزلزل فكتبت له بذلك . عاشرته معاشرة انتفعت به . وله امرأة في غاية الجمال صغيرة السن أحسن منه وأقوى وكان سيدنا هذا عند شمس (أم الفقراء) بـ «مرشانة الزيتون» في يوم أربعاء فقالت العجوز تمنيت أن يأتينا غداً أبو الحسن بن قيطون فاكتبوا إليه عسى يصل غداً وكان في بلد «قرمونة» بينهما سبعة فراسخ وكان أبو الحسن هذا يعلم الصبيان القرآن بـ «قرمونة» ويعطل الخميس والجمعة فقال أبو محمد سيدنا (رضي الله عنه) هكذا تعمل العامة فقالت له العجوز فما تفعل قال أسوقه بهمتي فقالت أفعل فقال قد حركت الساعة خاطره بالوصول إلينا غداً إن شاء

الله تعـالى فلما أصبحت قـالت لـه تـراه مـا جـاء قـال غفلت عنـه ولكني أخرجه لكم الساعة فارسل همتـه إليه فلمـا كان قبيـل الظهـر دخل عليهم على غفلة أبـو الحسن المذكـور ، فتعجبوا ، فقـال المروزي : سلوه مـا الذي أمسكك عنا إلى هذا الـوقت وكيف خطر لـك ومتى نويت الـوصول إلينا فقال أمس العصر وجدت في باطني قائلاً يقول مـر غداً إلى العجـوز بـ «مـرشـانــة» فقلت لصبيـان المكتب لا يجيء أحـد منكم غـداً فلمـا أصبحت فترعني ذلك ـ وهـو الذي غفـل سيدنـا أبو محمـد عنه ـ قيـل له إيه قال فوجهت إلى الصبيان ووصلوا وأخذوا ألواحهم ليكتبوا فأنـا كذلـك إذ وجـدت قلبي قـد انقبض وشـد عليـه وقيــل لي أخـرج السـاعـة إلى «مرشانة» إلى زيارة العجـوز فقلت للصبيان سيـروا إلى منازلكم وهـو كان خـروجي إليكم فهذا الـذي أبطأني فقـالوا لـه اتفق من الأمـر كـذا وكـذا ووصفـوا له الحـال فتعجب وقال هـذا والله العظيم كـان فكان بعـد ذلـك ينظره بعين التعظيم واهتـز وأخـذ في الـرحلة أبـو الحسن المـذكـور إلى «المرية» إلى شيخ كان بهـا يُقال لـه أبو عبـد الله الغزال (رحمه الله تعالى): من أصحـاب ابن العـريف من أقـران أبي الـربيــع الكفيف وأبي النجـا وعبد الرحيم وهذه الطبقـة ورآه وانتفع بـه ثم عاد إلى «قـرمونـة» فلم يزل يخدم الفقراء ويضيفهم ويتـواضع وكنت استحسن منـه ذلك فـاشهد لقـد رأيته وصل إلى «إشبيليـة» فصاحب الفقهـاء وجالس الـطلبة المكبين على الدنيا وقرأ الفقه وأصـوله وعلم الكـلام وسكن «إشبيلية» يعلم بهـا القرآن فأداه صحبة أولئـك إلى تجهيل الفقـراء الصادقين في أحـوالهم ونبذهم. فإياك يـا أخي عافـاك الله من الظن السـوء : أن تظن في أني أذم الفقهـاء من أجـل أنهم فقهـاء أو لنقلهم الفقــه لا ينبغي أن يـظن هــذا بمسلم ، وإن شـرف الفقه وعلم الشـرع لاخفـاء بـه ولكن أذم من الفقهـاء الصنف الـذي تكالب على الـدنيا وطلب الفقـه للريـاء والسمعـة وابتغى بـه نـظر النـاس ليقال ، ولازم المـراء والجدال وأخـذ يرد على أبنـا الآخرة الـذين اتقـوا الله فعلمهم من لدنـه علمـاً فـأخـذت الفقهـاء ـ أعني هـذا الصنف

منهم ـ في الرد عليهم في علم لا يعلمونه ولا عرفوا أصوله ولو سئل عن شرح لفظة مما اصطلح عليه علماء الآخرة ما عرفها وكفى به جهلا ولو نظر في قول الله تعالى : ﴿**ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم**﴾ الآية لاعتبر وتاب وقد ذم (ع) العلماء لكونهم طلبوه لغير الله وتصرفوا به في غير مرضات الله لا لكونهم علموا ، كما مدح الصنف الآخر من العلماء بالخشية وغير ذلك كما أني قد ذممت الصوفية في كتابي هذا ولم أرد به الصادقين وإنما أعني الصنف الذي تزيا بزيهم عند الناس وباطنة مع الله بخلاف ذلك ، قال الله تعالى : ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه**﴾ فلا أنكر مرتبة الفقه وقد سمعت النبي (ص) يقول من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولما كان هذا الصنف من الفقهاء غلبت عليهم نفوسهم وشهواتهم واستولى عليهم الشيطان وعلى أيديهم جرى الضرر على أولياء الله وبشهادتهم هلكوا كما سيأتي في آخر الكتاب هذا عن النبي (ص) . وأما العلماء العاملون المنصفون الراسخون في العلم فهم السادة الذين هداهم الله فهم مصابيح الهدى وأعلام التقى وارثوا رسول الله (ص) في العلم والعمل والوصف الذين صح لهم نسب التقوى فإذا سمعتني أذم الفقهاء في هذا الكتاب فإنما أعني به هذا الصنف المدبر الذي اتبع شهوته وغرض نفسه الأمارة بالسوء وكذلك ذمي للصوفية فإنما أذم هذا الصنف الذي ذكرت فإن الحلولية والإباحية وغيرهم من هذا الطريق ظهروا وتظاهروا واتصفوا فهم قرناء الشيطان وحلفاء الخسران : نور الله بصائرنا وبصائرهم وأصلح سرائرنا وسرائرهم وأوقفهم على عيوبهم لعلهم يرجعون . وأشهد لقد وصل ألينا هذا السيد عبد الله المروزي الذي رآى له تلك البركة ليزوره في داره فقرع عليه الباب وأنا معه وصاحبي عبد الله بدر الحبشي فقال من بالباب فقال عبد الله المروزي جاء ليزورك فسكت ساعة ثم خرج إليه ابنه وقال له مشغول هو ثم قال له ما هو هنا ولم يرى مكانته هذا انتهى بغضه في

الفقـراء وهـذا حصـل لـه من شؤم الفقهـاء حـال الله بيننـا وبين كـل من يقـطعنا عن الله وعن أهله وخـاصته وكـان إذا لقيني يعتبني على صحبتهم ويقـول لي مثلك من يصحبهم فـأقـول لـه مثلي لا يصلح أن يخـدمهم فـإنهم السادة وإنمـا كان يحن إلى مشـاركتي له في علمـه الـذي قـرأه لا لكـوني في طـريق القـوم ولا لمحبتي فيهم فتـركتـه في ذات الله تعـالى وتركت معاشرته وصار اليوم حكمه حكم الفقهاء في الولاية لأنهـا معقولـة متوهمة لا يعرف صاحبها ثم إذا وصف الفقيه أفعال الأولياء أقيـدها عليـه ثم أريـه تلك الأفعال في شخص فـإذا رآه يقول إيـه من قـال إنـه أخلص فيهـا لو كـان مخلصاً مـا أطلعت أنت ولا أنا عليـه إنما نصب هـذا لحيلة مـا فلا تـراه يحسن الـظن بـأحـد قط ولم أزل أبـداً والحمـد لله أجـاهـد الفقهـاء في حق الفقـراء السـادة حق الجهـاد وأذب عنهم وأحمي وبهـذا فتح لي ومن تعـرض لـذمهم والأخـذ فيهم على التعيين وحمـل من لم يعاشر على من عاشر فإنه لا خفـاء بجهله ولا يفلح أبداً ولقـد تكلم معي بحرم مكة رجل يُقال له القاضي عبد الوهـاب الأزدي من أهل اسكنـدرية فقيـه قد استحـوذ عليه الشيـطان بحيث صيره أن يعتقـد أن الزمـان فـارغ من جميع المراتب في كـل فن وإنما هي تلفيقـات وخرافـات فسألت كم بلد في معمـور الأرض للمسلمين فقـال كثيـر ، فقلت لـه كـم دخلت منهـا ؟ فـذكـر سـتـة بـلاد أو سبعـة ، فقلت لـه : كم الخلق فيهـا ؟ قـال كثيـر ، فقلت له : من أكثـر الذى رأيت أم الـذي لم تره ؟ قـال الذي لم أره فضحكت وقلت لـه حد المعتـوه الأحمق الذي يـرى الكثير ويبقى لـه القليـل فيقيس القليل على الكثيـر ويحمله عليـه في الحكم وأمـا المؤمن الناصح نفسه فإنـه يقول : ولعـل في ذلك القليـل ولو كـان واحداً لم أره لعله ذلـك السعيد ؟ كيف ومن يقـول مـا رأيت إلاّ القليـل ولا من البـلاد ولا من النـاس ثم يعتقد ذلـك فلا خفـاء بجهله ثم إنه لا يـطلع الله مثـل هـذا إلاّ على نقـائص العـالم لا على فضـائله حتى يحكم على الغـائب بمـا يراه فيشقي بـذلك عنـد الله وأين هـو من قـول الله تعـالى وإن تـطع

أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله فكثرهم وقال ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقليل ما هم فقللهم ثم إن في المسألة ما هو أعجب من ذلك إني سمعته يقول ما يناقض أصله من جهة علمه فقال الناس على قسمين دني وغير دني : ذكي وغير ذكي فغير الذكي لا كلام معه لنقصه والذكي لا يسلم من الغلط فما ثم شيء فانظر نظره إلى باب العيب والنقص لشقاوته وتركه النظر في أحوالهم إلى باب الفضل هلا قال عند هذا التقسيم فغير الذكي يأتي إلى العالم فيأخذ منه العلم تقليداً لعدم فطنته فيوفق ويرجى أن يعلمه الله والثاني الغالب عليه الإصابة في عموم أحواله وهذا لا يقنع في الأشياء إلّا بالبراهين من نفسه لذكائه فمنهما غلط إن استمر في غلطه بعد اجتهاده فمعفو عنه أو قد يرجع عن ذلك وأما نقض أصله فيها فقول النبي (ص) في الحاكم إذا اجتهد فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر وكل مجتهد مصيب فتراه مأجوراً في الحالتين لا وزر عليه البتة ، فرأيت هذا الفقيه أجهل الجاهلين والحمد لله رب العالمين .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو محمد عبد الله الباغي الشكاز (رضي الله عنه) من «حصن باغة» سكن «غرناطة» وهو بها حتى الآن اجتمعت به في منزله مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي وكانت عادتي إذا دخلت على من دخلت عليه من شيخ أو فقير ادفع إليه كل درهم يكون عندي لا أمسك شيئاً فلم يكن عندي سوى درهم واحد في اليوم فدفعته إليه . كان (رضي الله عنه) من أهل الجد والاجتهاد الغالب عليه الحزن والبكاء يكره المعصية كما يكره الكفر ويكره الصغيرة كما يكره الكبيرة ويحقق في مقام المحافظة يكاد يكون معصوماً كما قال أبو عقال قال صحبت شيخي هارون فلم أر له كبير عمل ينام الليل كله فوقع في نفسي من قلة اجتهاده فهتف بي هاتف ﴿أم حسب الذين أجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ قال فأتيته فقلت يا سيدنا هل أتيت كبيرة قط

قـال ولا صغيرة عن تعمـد . كان (رضي الله عنه) ليله قائم ونهـاره صـائم لم يقدر مريد قط على صحبته لأنه كان يطلبه باجتهاده فيفـر منه . عـاش وحيـداً فريـداً ليس عنده ، ولا لـه على النفس رحمة يُقـال له عن رحمـة الصحـابة بـأنفسهم فيقول لـو لم يكن لهم إلاَّ الصحبـة متى نلحق بهم . لم أر لـه شبيهاً إلاَّ أبـا مسلم الخولاني التـابعي كان قـد أخـذ في الجـد والاجتهـاد ويقطع القضبـان فإذا كسـل عن الـوقـوف في الصـلاة ضـرب بـالقضيب سـاقيـه ويقـول أنت أحق بـالضـرب من دابتي حتى تنكسـر القضبـان كلهـا ثم يقـول : «أيـظن أصحــاب محمـد (ص) أن يفــوزوا بمحمـد (ص) دوننا والله لأزاحمنهم عليـه حتى يعلموا أن خلفـوا بعدهم رجـالاً» . كان هـذا الشكاز مليـح المقابلة حسن المعـاشرة كثيـر التلهف يحن إلى الإشارات سمعته يقول انظروا في هذه الأربعة : ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ لا تلهيهم تجارة ـ وعلى الأعراف رجال ـ يأتوك رجالاً ـ (رضي الله عنهم) .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبـو محمد عبـد الله القـطان المفتـوح عليـه في القـرآن كان يصـدع بـالأمـر لا تـأخـذه في الله لـومـة لائم يـرد كـلام السـلاطين في وجوههم أقبـح الرد ، لـه صولـة يرمي من شـاء بالحق ولا يبـالي عرض بنفسـه للقتل من كثـرة سبه لأفعـال السلاطين ومـا هم عليه من مخـالفة الشـريعـة . لـه مجـالس معهم يضيق الـوقت عن ذكـرهـا لا يتكلم إلاَّ بالقرآن ولا يـرى غيره لم يكتسب كتـاباً . سمعتـه يقول بمـدينة قـرطبة في جمـاعـة مسـاكين «أصحـاب المصنفـات والتـآليف مـا أطـول حسابهم» في كتاب الله مقنع وفي حديث رسول الله (ص) كان يحافظ على صــاحبـه لم يتنعم قط ولا جمــع بين درهمين وجـه السلطان فيـه ليقتله فـأخذه الأعـوان دخلوا به على الـوزير فـأقعد بين يـديه فقـال يا ظـالم يا عدو الله وعدو نفسـه فيما وجهت فقـال قد أمكن الله منـك ما تعيش بعـد هـذا أبداً فقـال له الشيـخ لا تقرب أجـلاً ولا تدفـع مقدوراً كـل ذلـك لا يكون ، أنا والله أشهد جنازتك فقال الـوزير لـو زعته اسجنـوه حتى أشاور

السلطان في قتله فسجن تلك الليلة فانصرف، وهو يقول عجباً لم يزل المؤمن في سجن وإنما هذا بيت من بيوت السجن فلما كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزير بقصة الشيخ وكلامه فأمر به فحضر بين يديه فرأى رجلاً دميم الخلقة لا يؤبه له وما أحد من أهل الدنيا يريد له خيراً وهذا كله لقوله الحق وإظهار معايبهم وما هم عليه من الجور والفساد فقال له السلطان بعد ما سأله عن اسمه ونسبه أتحفظ توحيدك فتلا عليه من القرآن بتقاسيمه فتعجب الملك وانبسط له إلى أن دخل معه في المملكة وشأنها فقال له السلطان ما تقول في ملكي هذا فضحك فقال له مم تضحك فقال منك تسمي الزمان الذي أنت فيه ملكاً وتسمي نفسك ملكاً أنت كمن قال الله تعالى فيه : ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً**﴾ إنما كان الملك اليوم الذي يصلى اليوم بنارها ويجزي بها وأما أنت فرجل عجنت لك خبزة وقيل لك كلها ثم أغلظ عليه في القول بكل ما يكرهه ويغيظه وفي المجلس الوزراء والفقهاء فسكت السلطان وخجل وقال هذا رجل موفق يا عبد الله أجلس مجلسنا قال لا فإن مجلسك مغضوب ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حق ولولا أني مجبور ما دخلت هنا حال الله بيني وبينك وبين أمثالك ، فأمر له بأعطية وعفاه في نفسه فرد له الأعطية وقبل العفو وخرج فأمر السلطان أن تدفع إلى أهله ، وما مضى زمن قليل إلاّ والوزير قد مات وخرج أبو محمد وحضر جنازته وقال بررت في قسمي . وكان يصيح ويرفع صوته أمام أرباب الدولة ويقول هؤلاء الفجار بغوا في الأرض (عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ﴿**خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون**﴾ . صاحبت هذا الرجل وكان يحبني كثيراً استدعيته ليلة ليبيت عندي فلما أخذ مجلسه جاء والدي (رحمه الله) وكان من أصحاب السلطان فلما دخل سلم عليه وكان والدي قد أنقا فلما صلينا العشاء قدمت له الطعام وقعدت آكل وانضم والدي يغتنم بركته فرد إليه وجهه (رضي الله عنه) وقال يا شيبة

منحوسة أما آن لك أن تستحيي من الله إلى متى تصحب هؤلاء الظلمة ما أقل حياءك أأمنت من الموت أن يأتيك وأنت على شر حالة أمالك في ابنك هذا ـ وأشار إلي ـ موعظة شاب صغير في شهوته قمع هواه وطرد شيطانه وعدل إلى الله تعالى يصاحب أهل الله وأنت شيخ سوء على شفا حفرة من النار فبكا والدي واعترف وأنا في ذلك كله أتعجب . وله أخبار كثيرة وشأنه عجيب جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي بقرطبة ومشينا معه إلى منزله (رضي الله عنه). سمعته يوماً يقول عجبت لمن يطلب ما يركب وهو لم يشرع في شكر ما أكل وما لبس . كان لا يزيد على الحاجة شيئاً في مأكله وملبسه ، كان قاصماً للجبارين ما تفوته غزوة قط في الروم راحلاً بغير زاد .

ومنهم (رضي الله عنه) ابن جعدون الحناوي مات بفاس سنة سبع وتسعين وخمسمائة جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله الحبشي كان (رضي الله عنه) واحداً من الأربعة الأوتاد يمسك الله العوالم بهم سأل الله تعالى أن يسقط حرمته من قلوب العالم فكان إذا غاب لم يفتقد وإذا حضر لم يستشر وإذا جاء لا يوسع له وإذا تكلم بين قوم ضرب وسخف كان سبب اجتماعي به ما أذكره الآن وذلك أني لما وصلت مدينة فاس فكان ذكرى قد بلغ من بها فأحب من بلغه ذلك الاجتماع بي فكنت أفر من الدار إلى الجامع فلا أوجد في الدار فأطلب في الجامع وأنا أراهم فيأتوني فيسألوني عني فأقول لهم اطلبوه حتى تجدوه فبينما أنا قاعد وعلي ثياب رفيعة جداً وإذا بهذا الشيخ قد قعد بين يدي ولم أكن أعرفه قبل ذلك فقال لي السلام عليك ورحمة الله وبركاته فرددت عليه ففتح كتاب «شرح المعرفة» للمحاسبي فقرأ منه كلمات ثم قال لي أشرح وبين ما قال فخوطبت بأحواله ومن هو ومقامه وأنه من الأوتاد الأربعة وأن ابنه يرث مقامه فقلت له عرفتك فأنت فلان فأغلق كتابه وقام واقفاً وقال الستر الستر إني أحبك فأحببت أن أتعرف إليك فقد صح المقصود ثم انصرف فلم أكن أجالسه قط إلاَّ إذا لم يكن معنا

أحد وكان معقود اللسان لا يتكلم إلاَّ عن مشقة فإذا تلى القرآن كان من أحسن الناس صوتاً وأبدعهم مساقاً ، كان كثير الاجتهاد وكان ينخل الحنا بالأجرة ، قل ما تراه إلاَّ مكحول العينين أشعث أغبر .

وإنما كان يكحل عينيه من أجل غبار الحنا .

ومنهم (رضي الله عنه) أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي من الأبدال شيخ الجبال والسواحل انقطع بالجبال والسواحل لا يأوي إلى معمور قريباً من ثلاثين سنة كان قوي الفراسة كثير البكا طويل القيام دائم الصمت كثيراً ما ينكت بأصبعه في الأرض مطرقاً متفكراً يرفع رأسه فيتنفس الصعداء لصدره أزيز شديد الوجد غزير الدمعة صاحبته وعاشرته زماناً كان إذا وقعت عينه علي فرح بي واستبشر خرج عن حال كثير وافر كان من أعين من في موضعه خرجت وقتاً من مدينة «شدونة» أريد الساحل في طلب الرجال فتبعني شاب لا نبات بعارضيه يريد صحبتي فأخذته معي فقام أمامي شخصان الواحد أسمر طويل يقال له عبد السلام السائح يجول في الأرض لا يقر به قرار ومعه آخر يُقال له محمد بن الحاج وكانا يمشيان مشياً سريعاً فلحقتهما وكان بيني وبينهما خمسة أميال فمررت عليهما مستعجلاً وكان يوم جمعة فأويت إلى قرية يُقال لها «روطة» من أجل صلاة الجمعة فدخلت مسجد الجماعة فركعت ركعتين وهو موضع يطرقه الصالحون رباط حسن له بركات مشهورة فاتفق لي بها قصة فلم ألبث أن جاء هذا - أبو عبد الله بن أشرف - فلما دخل قام إليه ذلك السائح وصاحبه فسلما عليه وعرفاه وأنا مضطجع في الجامع أضرب بيدي على صدري وأغني شعراً :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

فجاء إلي وأقامني وقال أتريد أن تستر نفسك ؟ فقلت له وكذلك تفعل أنت فكان كما قلته فأقبل إلي شيخ القرية ورغب أن أفطر عنده

أنا ومن شئت فقال لي ابن أشرف لا تأكل من هذا الطعام شيئاً واحمل جميع الفقراء فإذا أكلوا تأتي وتفطر معي فكان ذلك وأخبرني بأمور كثيرة ووعدني أن ألقاه بـ «إشبيلية» فأقمت معه ثلاثة أيام وانصرفت فأخبرني بكل ما يتفق لي من بعد مفارقته حرفاً حرفاً فكان كذلك فلما وصلت إلى «إشبيلية» أقام الله بخاطري الرحلة إليك لأراك وانتفع بك، وكان ذلك يوم الثلاثاء فشاورت الوالدة في السفر فأذنت فلما كان في غد قرع إنسان على الباب فخرجت فوجدت إنساناً من البادية فقال أنت محمد بن العربي ؟ فقلت له نعم، قال كنت أمشي بين «ملجانة» و «مرشانة» فلقيني رجل له هيبة وهمهمة فقال أنت تسير إلى «إشبيلية» قلت نعم قال سل عن دار ابن العربي واجتمع معه وقل له صاحبك الرندي يقرئك السلام وهذا كان طريقه إليك ولكن خطر لك الساعة أن ترحل إلى تونس فسر مسلماً عافاك الله واجتماعنا إن شاء الله إذا وصلت «إشبيلية» فكان كما قال فدخلت أنا في اليوم الثاني لزيارتكم وغبت عن موضعي ويوم وصولي أو ثانيه اجتمع بي وبت معه في دار أبي عبد الله القسطيلي. وكان سبب شهرته (رضي الله عنه) أنه كان كثيراً ما يقعد في جبل شامخ على «موزوز» فمشي بعض الناس فيه لحاجة فرآى عموداً من نور يتشعشع ولا يستطيع النظر إليه فقصده فوجد ذلك النور صاحبنا أبا عبد الله وهو قائم يصلّي فأشهره. كان يحترف بجمع «البابينا» من الجبال ويأتي بها إلى المصر يبيعها وينصرف له غرائب وعجائب عاينتها. لقيه القطاع وهو على «عين قاعد» فقالوا له ألق ما عليك من الثياب أو تموت فبكى وقال والله لا أحسنت عونكم على معصية إن أمرتم بشيء فافعلوه ثم أخذته غيرة في دين الله فنظر إليهم نظرته المشهورة ففروا سألني يوماً بالساحل عن قوله تعالى: ﴿**ما أريد منهم من رزق**﴾ فلم أجبه وتركته واجتمعت به بعد ذلك بأربع سنين فقلت له يا أبا عبد الله قال نعم قلت خذ جوابك قال هات بعد أربع سنين وصل الوقت فأجبته فيها وتعجب من حضوره فيها وكنت أتمنى

أبـداً أن يراه صـاحبي عبـد الله بـدر الحبشي فلمـا دخلت الأنـدلس معـه نـزلنـا بـ «رنـدة» فصلينـا على جنـازة فـإذا بـأبي عبـد الله أمـامي فقلت لصاحبي عبد الله هذا فلان فسر بعضنا ببعض ودخلت بـه الموضـع الذي نـزلت بـه فقـال عبـد الله وددت أن أرى من كـرامـاتـه شيئـاً فلمـا جـاء المغرب وصلينا أبطأ الذي نـزلنا عنـده بالمصبـاح فقال صـاحبي الحبشي أريد المصباح فقـال أبو عبـد الله نعم ثم أخذ بيـده قبضة من حشيش من البيت الذي كنا فيه ونحن ننظر ما يصنع فضـربها بـأصبعه المسبحـة وقال هذا نار فاشتعل الحشيش ناراً فأشعلنـا المصباح ، كـان يغترف النـار بيده من الكـانون لحـاجة مـا فيمسكـه مـا شاء الله ولا تعـدو عليـه وكـان من الأمنين سألته عن بكائه يـوماً فقـال آليت أن لا أدعو على أحـد فأغـاظني رجـل فدعـوت عليه فهلك فنـدمت على ذلـك إلى الآن فكـان (رضي الله عنه) رحمة للعالم وأخباره كثيرة يضيق وقتنا عن شرحها .

ومنهم (رضي الله عنهم) موسى أبو عمـران السيد ، رآني ، كـان من الأبـدال وكان مجهـولاً له عجـائب وغرائب كـان سبب اجتمـاعي بـه أني قعدت بعد صلاة المغرب بمنزلي بـ «إشبيلية» في حيـاة الشيخ أبي مـدين وتمنيت أن لـو اجتمعت به والشيـخ في ذلـك الـزمن بـ «بجـايـة» مسيـرة خمسـة وأربعين يومـاً فلما صليت المغـرب تنفلت ركعتين خفيفتين فلمـا سلمت دخل علي هذا ـ أبـو عمران ـ فسلم فـأجلسته إلى جـانبي وقلت من أين فقال من عند الشيـخ أبي مدين من «بجـاية» قلت متى عهـدك به قال صليت معه هـذا المغرب فـرد وجهه إلي وقـال إن محمد بن العـربي بـ «إشبيلية» خطر له كذا وكـذا فسر إليـه الساعـة وأخبره عني بكـذا وكذا وذكـر لي من رغبتي في لقاء الشيـخ وقـال لي يقـول لـك أمـا الاجتمـاع بـالأرواح فقد صـح بيني وبينك وثبت وأمـا الاجتماع بـالأجسام في هـذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكن خاطرك والموعـد بيني وبينك عنـد الله في مستقر رحمته وذكر كلاماً خلاف هذا ورجع إليـه كان هـذا ـ موسى (رضي الله عنه) ـ من أهل السعة في الدنيـا فخرج عنـه ففتح الله عليـه في ثمانيـة

عشر يوماً إلتحق بالأبدال كان يتبوأ من الأرض حيث يشاء وشى به إلى السلطان فأمر بتقييده فقيد بالحديد وسير به إليه فلما قرب من فاس ألقي في بعض المنازل في بيت وأقفل عليه وبات عليه الحرس فلما أصبح فتح الباب فوجدوا الحديد الذي كان عليه مطروحاً وما وجدوا أحداً ، فدخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب فقرع عليه الباب فخرج الشيخ بنفسه وقال له من أنت قال أنا موسىٰ قال له الشيخ وأنا شعيب أدخل ـ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ـ أخبرني شيخي أبو يعقوب الكوفي عنه أنه وصل جبل قاف المحيط بالأرض فصلّى الضحى بأسفله وصلّى العصر على ذروته سئل عن ارتفاعه في الهوى فقال مسيرة ثلاثمائة سنة وأخبر أن الله طوق هذا الجبل بحية اجتمع رأسها بذنبها فقال له صاحبه الذي كان معه سلم على هذه الحية ترد عليك قال موسى فسلمت عليها فقالت وعليك السلام يا أبا عمران كيف حال الشيخ أبي مدين فقلت لها وأني لك بمعرفة أبي مدين فقالت عجباً وهل على وجه الأرض من يجهل أبا مدين إن الله تعالى قد أنزل حبه إلى الأرض ونادى به فعرفته أنا وغيري فلا شيء من رطب ولا يابس إلّا يعرفه يحبه دخل هذا ـ موسى ـ أرضاً رأى النمل فيها على قدر المعز عجيبة الخلق ولقي عجوزاً خراسانية واقفة على البحر والأمواج تصطفق بين ساقيها وهي تسبح الله وتقدسه ، شأن عجيب وحديث طويل .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو محمد مخلوف القباني سكن قرطبة حتى مات عن أذن رسول الله (ص) حملت إليه والدي (رحمه الله تعالى) فدعا له ومسكناً عنده من غدوة حتى صلينا العصر وأكلنا من طعامه كنت إذا دخلت بيته أخذك الحال قبل أن تراه فإذا رأيته رأيت منظراً عظيماً عليه ثوب صوف كان ذاكراً على الدوام خلاف أوراده كان له كل يوم خلاف ذكره كذا ألف تسبيحة وكذلك التكبير والتحميد والتهليل كان يعم بدعائه أهل السموات وأهل الأرض حتى الحيات في البحر وكان

سريع العبرة وأراد أن يحفر بئراً في داره فسيق إليه علج مأسور ليحفره فقال (رضي الله عنه) هذا العلج قد خدمنا فنسأل الله في إسلامه فخلا بنفسه ليلته يسأل الله فيه فلما أصبح أقبل العلج لشغله وهو قد اسلم فسأل عن سبب ذلك فقال رأيت النبي (ص) وأمرني أن أومن به فآمنت وقال بشفاعة أبي محمد مخلوف فيك أو كلام هذا معناه . تركته في عافية وانصرفت إلى منزلي فلما جاء الليل وأخذت مضجعي فرأيت في المنام كأني بأرض واسعة وسحاب يدنو فيها صهيل الخيل وقعقعة اللجم رأيت أشخاصاً ركباناً وعلى أقدامهم فينزلون في ذلك الفضاء حتى امتلأ بهم الفضاء ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أنقى ثياباً ولا أحسن من خيلهم وكنت أرى رجلاً طويلاً عظيم اللحية أشيب يده إلى خده واسع الوجه فكنت من بين الجماعة كلها أقول له أخبرني ما هذا الجم الغفير فيقول لي هؤلاء جميع النبيين من آدم إلى محمد(عليهم الصلاة والسلام) ما بقي أحد منهم إلاّ نزل فقلت من أنت منهم ؟ قال أنا هود صاحب عاد فكنت أقول له فيم جئتم فيقول جئنا عواداً زائرين أبا محمد فاستيقظت فسألت عن أبي محمد مخلوف فوجدته قد مرض تلك الليلة فلبث أياماً ومات (رحمه الله تعالى) .

ومنهم (رضي الله عنهم) صالح الخراز كان بإشبيلية من أهل الجد والاجتهاد والورع في العبادة أقبل على العبادة وهو ابن سبع سنين أو دونها كان مبهوتاً أبداً ما لعب قط مع الغلمان ولا كلمهم يعمل الخرز من أجل ورعه حتى يأكل من عمل يده وكان له والدة وكان باراً بها نسخ بيده - مع صغر سنه - كتاب ابن العسال الكبير - ولازم العزلة كان طويل الصمت يقول أصحابه الذين كانوا معه ما كلمنا قط إلاّ فيما لا بد منه عاشرته وأحببته وكان إذا قال قولاً لا يرجع عنه لأنه لا يقول إلاّ عن صدق ولا يقضي حاجة أبداً ولا يعمل شغلاً قط لمن يعرف منه أنه يراه بعين التعظيم وأكثر شغله إنما كان مع الغرباء الذين يطرقون المدينة لا يعرفونه ولا يعرفهم ، قصد إليه بعض أصحابنا بنعله وقد

قطعه عمداً ليجد سبيلاً إلى مكالمته فسلم عليه فرد عليه السلام فقال له هذا نعلي أخرزه فقال له إن هذا النعل بيدي أصلح شأنه لصاحبه وقد دفع لي أجره وأنا واقف بحيث لا يراني فقال له أمسكه عندك حتى تفرغ من هذا النعل وتصلحه فقال ولعلي أموت قبل ذلك ترى غيري دون شغل أدفعه له فقال ما أريد أن يصلحه أحد إلاّ أنت قال قد قلت ما سمعت واشتغل بذكره قال له تراني أقعد هنا ونعلي عندي حتى تتمه وتصلحه قال ذلك لك إن شئت ولكن حتى أعرفك بأجري عليه قال له قل قال أجري عليه ثمن درهم قال له الرجل أنا أدفع لك ربع درهم قال ما يساوي قال له الرجل ذلك مني مسامحة قال غيري أحوج إليه مني إن كنت تعطي لله فإني قد أخذت قوت اليوم قال لا بد من ذلك قال له قد صدعتني يا إنسان سرعني لا أعمل لك شغلاً وأقبل على ذكره وشغله فرجع الرجل إلي منكسر القلب فقلت له قد طولت عليه أرجع إليه مرة أخرى وقل له أخرزه لي ابتغاء ثواب الله لا أدفع لك عليه شيئاً فرجع إليه فقال له ذلك فنظر إليه ساعة وقال له أنت مرسول ثم إلتفت وأبصرني فقال له أترك نعلك وانصرف عني فإذا كان العصر فأتني فإن وجدتني حياً دفعته لك وإن وجدتني ميتاً فتراني أوصي لك هذا الجار ثم إلتفت وأشار إلي فأقبلت إليه فقال هكذا تفعل الأصحاب ! ؟ يقابلون إخوانهم بما يسوءهم لا تعد لمثلها ولولا ما جعل الله في قلبي من الألفة ما رأيتك ولن أستر علي ، فلم أعرف بعد ذلك أحداً بحاله (رضي الله عنه) .

انتقل إلى سكن البادية يبتغي الإنفراد والعزلة .

ومنهم (رضي الله عنهم) عبد الله الخياط اجتمعت به بجامع العديس وهو ابن عشر سنين أو أحد عشر سنة وهو ذو طمرين ممتقع اللون كثير الفكر شديد الوجد والتوله كنت قد فتح لي في هذا الطريق وما علم بي أحد فأردت الموازنة معه فنظرت إليه فتبسم ونظر إلي وأشرت إليه وأشار إلي ، فوالله ما رأيت نفسي بين يديه إلاّ كدرهم

زائف وقال لي الجد الجد فطوبى لمن عرف ما خلق له وصلى معي العصر وأخذ نعله وسلم علي وانصرف فذهبت أشيعه أعرف منزله فلم أجد له أثراً فسألت عنه فلم أجد أحداً يخبرني عنه فما بقيت في راحة دونه ولم أره بعد ذلك ولا سمعت به إلى الآن .

فمنهم صغير ومنهم كبير .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو العباس أحمد بن همام من أهل «إشبيلية» ألهمه الله رشد نفسه وأقبل على العبادة قبل أن يبلغ الحلم وكان ذا جد يبكي أبداً على نفسه ، كأنه الثكلى على وحيدها كان له والد يحول بينه وبين طريق الله كلما أشتد ذلك عليه قال لي يا أخي اشتد علي الأمر وقد طردني أبي وقال لي سر حيث شئت وأنا أريد الخروج إلى ثغور المسلمين لجهاد العدو وأرابط بموضع منها حتى أموت ، فمشى إلى ثغر منها يُقال له «جلمانية» ولم يزل بها حتى الآن وصل إلى «إشبيلية» بعد ذلك وأخذ أسباباً يحتاج إليها ورجع يرابط بها .

كان أبداً ملازماً في دار عبد الله الخياط الذي تقدم ذكره .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو أحمد السلاوي وصل إلينا إلى «إشبيلية» وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب كان هذا ـ أبو أحمد (رحمه الله) ـ قوي الحال صحب أبا مدين ثمانية عشر سنة وكان كثير الاجتهاد والعبادة شديد البكا بت معه شهراً كاملاً بمسجد ابن جراد فقمت ليلة أريد أن أصلّي فتوضأت وجئت إلى مسقف المسجد فرآيته نائماً عند باب المسقف والأنوار متصلة إلى السماء وبقيت واقفاً أنظر فلا أدري أمن السماء نزلت عليه تلك الأنوار حتى أتصلت به أو منه انبعثت حتى اتصلت بالسماء فلم أزل واقفاً عليه أتعجب من حاله حتى استيقظ وتوضأ وقام يصلّي كان إذا بكي آخذ الدموع إذا سقطت من عينيه على الأرض فأمسح بها وجهي فأجد فيها رائحة المسك فأتخذها طيباً يشمها

الناس علي فيقولون هذا المسك من أين اشتريته ؟

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو إسحاق إبراهيم بن طريف العبسي شيخ أبي عبد الله القرشي (رضي الله عنهما) كان بديار مصر وكان سمح الخلق لين الجانب قائلاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم من أهل الجد والاجتهاد كان يحن إلى العزلة ولا يقدر عليها من أجل الحرفة كان يبيع الفخار قيد كثيراً من كتب الطريق كانت المعاملة غالبة عليه يحب المعارف ويحن إليها وكان سبب موته أن رجلاً مر به فقال له يا سيدي مر عليك فلان ـ يسأله عن إنسان من أهل البلد وكان ذلك قد ابتلاه الله في عنقه بداء نسميه عندنا نفنفة ـ فلم يعرفه الشيخ جداً فألح عليه الرجل في السؤال فقال له أراك والله تسأل عن ذلك الرجل صاحب النفنفة في عنقه قال عنه أسأل قال الشيخ فناداني الحق في سري يا إبراهيم ما تعرف عبادنا إلّا بما نبتليهم ما كان له اسم تذكره به لأميتنك بها ، فأصبح وقد خرجت في عنقه فقاساها يسيراً ثم مات . أخبرني بهذه الحكاية ابنه محمد بالحرم وقال لي أبي ما غلطت في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة ، قصدته في بلده مرتين وكان يحبني واجتمعت به مع صاحبي عبد الله الحبشي في «سبتة» وفي بلده (رضي الله عنه) ونفعه .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي عرف بالقلفاط صاحب أبا الربيع الكفيف وغيره كان صديقاً لإبراهيم بن طريف كان هذا ـ عبد الله ـ يعمل على طريق الفتيان ولعمري قد ظهر فيه وبدت عليه أعلامه ما تراه يمشي قط إلّا في حق غيره لا يلتفت لنفسه ولا لحقها يقصد إلى البلد الحكام في حوائج الناس داره للفقراء مباحة محافظاً للشريعة والآداب مشروح الصدر أكثر من إبراهيم بن طريف . كان ابن طريف عنده جمود اجتمعت به مراراً عديدة وكان يميل إلى جانبي كثيراً اتفق لي بمدينة «سبتة» وهو بها مع ابن طريف أن وجه السلطان «أبو العلاء» مرتين ولم أكن حاضراً فأخذهما الفقراء

الذين كانوا وصلوا إلى الموضع من أجلي وانقبض خواص أصحابي عنها فلما كان في الليلة الثانية وجه إلينا كذلك «مرتين» فلم أقبل ولم أزرهم وكانوا قد أتوا إلينا فقراء بالقصد لما سمعوا أن السلطان يبعث إلينا فأقمت صلاة العشاء فصليت فقال بعض الفقراء «لا صلاة بحضرة طعام» فسكت عنه فغضب حيث لم أجبه فقلت أنا لم أقبل ذلك الطعام ولا أرى أن آكله فإنه عندي حرام ولا يمكن لي أن آمركم بأكله فإني أحب لكم ما أحب لنفسي ثم بينت وجه الحرام فيه ثم قلت هذا طعام حاضر من استحله أكله ومن لم يستحله تركه ودخلت إلى البيت الذي كنت فيه وادخلت معي خواص أصحابي فلما أصبح مشي ذلك ووشى عند الوزراء بأني أقول فيهم أنهم أهل حرام وغير ذلك فاغتاظ الوزير وقال إن السيد والله هو الذي يتناول توجيه ذلك الطعام بنفسه وقام لذلك وقعد فوصلت المسألة إلى السلطان وكان عاقلاً فقال نحن ما قصدنا إلاّ الخير وهو أعرف بحاله لا ندخل عليه مضرة ولا ما يسؤوه وقبض ذلك عني فبلغ ذلك صاحبنا القلفاط فاجتمع بي وخاف علي وعلى أصحابي مما يعرف من البلاد وعتبني على ذلك وقال يا فلان هذا في حق نفسك حسن ، غير أن المضرة تنسحب فيه على الطائفة وهؤلاء القوم ما يحتملون مثل هذا وقد قال بعضهم «ذل من ليس له ظالم يعضده وضل من ليس له عالم يرشده» فلما رأيت أن الرحمة غلبت عليه في حق الناس وتشديد الأمور والأخذ بالأرجح في المصلحة الدنيوية قلت له بئس العبد لله يستند إلى عدو الله لا راعى الله العالم إذا لم يراعوا حق الله ، الله أحق ، ونفضت يدي وقمت فانصرف فلقيت ابن طريف والخبر عنده فقال لي السياسة أولى ، فقلت له ما دام رأس المال محفوظاً ، فسكت (رضي الله عنه) ولولا التطويل لذكرناهم عن آخرهم .

ولكن اقتصرت على هذا المقدار رغبة في الإيجاز والاختصار .

وقد أفردت لذكرهم كتاباً سميته «الدرة الفاخرة في ذكر من

انتفعت به في طريق الآخرة» ذكرت فيه مثل عبد الله بن تاحمست يعده أهل «إشبيلية» من الأبدال وآخر يُقال له «الشحان» كان من الأبدال فنزل وبقي حزيناً لا يكلم أحداً ، كنت إذا لقيته رحمته لما أراه فيه من الكرب .

ومنهم (رضي الله عنهم) الشيخ العارف السائح المتجرد المنقطع الصادق الصالح المسن أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي من أهل المعارف والإشارات والتمكين قل أن تلقى مثله بيني وبينه مسائل من الحقائق كثيرة يضيق الوقت عن ذكرها ألفت من أجله كتاب «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب» .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو العباس بن تاجة ، من المجتهدين لم يزل المصحف بين عينيه حتى مات .

ومنهم (رضي الله عنهم) يوسف بـ «قرمونه» من التالين لكتاب الله لا يتركه القرآن أن يتحدث مع أحد صواماً قياماً .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو الحسن القنوني بمدينة «رندة» من أهل الفتوة والمعارف السنية .

ومنهم (رضي الله عنهم) «اللهم صلّ على محمد» الحداد بمدينة «إشبيلية» كان مشتهراً بالصلاة على النبي (ص) دائماً لا يفتر .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو إسحاق القرطبي بـ «بجاية» من أصحاب أبي مدين كان من الموحدين .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله الهدوي بمدينة «فاس» بقي نيفاً وستين سنة ما استدبر القبلة حتى مات .

ومنهم (رضي الله عنهم) علي بن موسى بن البقران بمدينة «فاس» مجهولاً بهذه الطريقة كان غامضاً للناس فيها وكان لديه معرفة تامة كانت له فيها فراسة كان عند الناس مشهوراً بالقراءات والروايات (رحمه الله) .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو الحسين يحيى بن الصائغ بـ «سبتة» من المحدثين وهو صوفي وهذا من الإعجوبات محدث صوفي، كبريت أحمر، له بركات كثيرة عاشرته كثيراً ورويت عنه وقرأت عليه كان زاهداً متجرداً.

ومنهم (رضي الله عنهم) ابن العاص أبو عبد الله «الباجي» بـ «إشبيلية» (رحمه الله) كان فقيهاً زاهداً وهذا أيضاً غريب: فقيه زاهد، لا يوجد.

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله بن زين بـ «إشبيلية» كان من أفضل الناس كثير الجد والاجتهاد والتقشف كان يقرأ القرآن والنحو بجامع العديس بـ «إشبيلية» لا يؤبه له غامضاً في الناس اعتكف على كتب أبي حامد، قرأ ليلة تأليف أبي القاسم بن أحمد في الرد على أبي حامد فعمي، فسجد لله من حينه وتضرع وأقسم أنه لا يقرأه أبداً ويذهبه فرد الله عليه بصره، وكان من فضلاء الناس.

لقيت أيضاً أخاه مثله، نودي به عند سوته جنتين اثنتين لبني زين.

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله الفران إمام أهل البلاء بقرطبة قل أن يلقى مثله سألته كيف يطيب عيشه معهم فقال لا أشم منهم إلَّا رائحة المسك أحفظ من أحواله: عجائب.

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو زكريا يحيى بن حسن الحسني بمدينة «بجاية» من العلماء العاملين السادة صاحب زهد وورع ونصيحة خلوت به يوماً عن إذنه فسألته وسألني فرأيت رجلاً الغالب عليه الخوف له أخبار عجيبة في تقشفه وأكله لقيته مراراً وقرأت عليه من بعض تآليفه.

ومنهم (رضي الله عنهم) عبد السلام الأسود السائح لا أدخل قرية إلَّا قيل من هنا مر فلان لا يقر له قرار سألته عن عدم قراره، فقال أجد حالة طيبة في الحركة.

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله القسطيلي بمدينة بـ «إشبيلية» من أهل الجد والاجتهاد والغيرة في دين الله تعالى إذا دخلت عليه في موضعه تنشط للعبادة .

ومنهم(رضي الله عنهم) أبو العباس أحمد بن منذر بمدينة «إشبيلية من أهل القرآن والعربية والفقه جيد في مذهب مالك (رضي الله عنه) من كراماته إذا اعتاصت عليه مسألة في المذهب يرى مالكاً يحلها له يتعرض إليه في داره الروحانيون والرجال يسلمون عليه يضيق عليه الحال فتلقى الدراهم بين يديه فيأبى أن يأخذها ويردها فترفع عنه غلب عليه الورع ، مباركاً صالحاً .

ومنهم موسى المعلم بمدينة فاس وهو من «قلعة بني سعيد» من نظراء «غرناطة» وابنه عبد الله نشأ صالحاً لا يعرف المعصية هو الشاب التائب لا يعرف له صبوة حافظاً لكتاب الله .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو العباس الخراز لقيته بمكة وانتفعت بدعائه ورأيت له بركة .

ومنهم (رضي الله عنهم) الحاج أبو محمد عبد الله البرجاني صاحبك وصديقك (رضي الله عنه)[1] يحب السنة وأهلها صالحاً جليل القدر كثير السكون سمعته يوماً يقول في قوله تعالى : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**﴾ لم تلوه هؤلاء حق تلاوته ؟ فقلت له : يا أبا محمد السؤال منك والجواب منك ! فتبسم وقال لأنه آتاهم فسبقت لهم العناية فلما أعطوا أعينوا . هذه إشارة بديعة تحتها بحور تزخر لمن نظر وتفكر ، يقول النبي (ص) في الإمارة «إن أعطيتها أعنت عليها وإن طلبتها لم تعن عليها» .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبد الله محمد البابلي الساكن بـ «دار

---

(١) في الهامش «يخاطب الشيخ عبد العزيز المهدوي الموضوع له هذه الرسالة» ا . هـ .

القير» خديمك الذي فتح الله له على يديك بـركاتـك عليه كـانت ظاهـرة رأيت له أموراً عجيبة كنت أسر بها لا يتسع الوقت بذكرها .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبو عبدالله المـرابط من أهل القـرآن والليل ظهرت عليه أنوارك جيد الذهن سريع الفهم .

ومنهم (رضي الله عنهم) ميمون بن التـونسي كـان يجمـع القـرمـز يعيش منه مرض عندنا بإشبيلية فـأخذتـه الصـالحـة زينب (امرأة من أطـاع الله) لتمرضه في دارها بنفسها فلمـا انتقل عنـدها مـات من ليلته كـان من رجال الله .

ومنهم (رضي الله عنهم) أبـو محمـد عبـد الله بن خميس الكتـابي جرائحي بمدينة تونس لقيته وزرته حافياً على قدمي في شدة الحـر تأسيـاً بشيخي أبي يعقوب وأبي محمد قـالا لي إنهما زاراه على هـذه الحالـة له بـركات وحسبي علمـك بحالـه ولقيت بمكة الأشخـاص السبعـة (نفع الله المسلمين بهم) جالستهم بين حطيم الحنابلة وصفة زمـزم وهـم خاصـة الله حقاً لا يطرقون ، عليهم السكينة والهيبـة لقيتهم وهـم في حال المشـاهدة فلم يقـع بيني وبينهم مكالمـة في معـرفـة ولقـد رأيت من سكـونهم مـالا يتصور أن يسكنه أحد .

ومنهم(رضي الله عنهم)«شمس» أم الفقـراء بـ «مرشـانـة الـزيتـون» اختلفت إليهـا مراراً مـا لقيت في الرجـال مثلهـا في الحمـل على نفسهـا كبيـرة الشأن في المعـاملات والمكـاشفات قـوية القلب لهـا همة شـريفة ولهـا التمييز تستـر حالهـا جداً كـانت تبدي منـه في السراء شيئـاً إلي لما حصل عندها مني من المكانة وكنت أفرح لها بذلك بركـات كثيرة ظـاهرة اختبرتها مراراً في باب الكشف فـوجدتهـا متمكنة الغـالب عليها الخـوف والرضى ، وتحصيل هـذين المقامين في وقت واحـد عندنـا عجيب يكاد لا يتصـور ، وكذلـك لقيت فاطمـة بنت أبي المتنبي بـ «إشبيلية» أدركتهـا في عشـر التسعين قد اسنت لا تـأكل إلاّ مـا يـطرح النـاس على أبـوابهم

من الأطعمة قليلة الأكل جداً كنت إذا قعدت معها استحيي أن أنظر إلى وجهها من عظيم تورد وجنتيها ونعمتها وهي في عشر التسعين سنة كانت سورتها من القرآن الفاتحة قالت لي أعطيت الفاتحة أصرفها في كل أمر شئته بنيت لها بيدي بيتاً من قصب تسكنه وكانت تقول لا يعجبني أحد ممن يدخل عليّ غير فلان - تعني إيّاي - فيقال لها بم ذاك فتقول ما منكم أحد يدخل علي إلاّ ببعضه وبترك بعضه في أغراضه من داره وأهله إلاّ محمد بن العربي ولدي وقرة عيني فإذا دخل علي دخل بكله وإذا قام قام بكله وإذا قعد قعد بكله لا يترك خلفه من نفسه شيئاً وهكذا ينبغي أن يكون الطريق . عرض الله عليها ملكه فلم تقف مع شيء منه إنما تقول أنت أنت ، كل شيء دونك مشؤوم علي ، كانت والهة في الله تعالى من رآها يقول عنها حمقاء فتقول الأحمق من لا يعرف ربه كانت رحمة للعالمين ضربها أبو عامر المؤذن بالدرة في الجامع ليلة العيد فنظرت إليه وأنصرفت متغيرة النفس عليه فبات تلك الليلة فلما كان السحر سمعت ذلك المؤذن يؤذن فقالت رب لا تؤاخذني تغيرت نفسي على رجل يذكرك في دياجي الليل والناس نيام هذا ذكر حبيبي يجري على لسانه اللهم لا تؤاخذه بتغيري عليه فلما أصبح دخل فقهاء البلد بعد صلاة العيد على السلطان ليسلموا عليه فدخل ذلك المؤذن في جملتهم رغبة في الدنيا فقال السلطان من يكون هذا قيل مؤذن الجامع فقال ومن أمره بالدخول مع الفقهاء أخرجوه فصفع وأخرج فشفع فيه عند السلطان فخلي سبيله بعدما أراد أن يعاقبه فقيل لها اتفق لفلان مع السلطان كذا وكذا فقالت علمت ولولا أني سألت التخفيف عنه لقتل . شأنها عجيب ماتت (رحمها الله تعالى) .

فهذا يا نفس قد قصصت عليك حالة من تقدم وحال بعض ممن لقيته من رجال ونساء وسكت عن كثير ممن لقيته وما جدت لك قدماً معهم ففي أي نمط تتميزين . ثم أرجع إليك يا وليي يا أبا محمد فإني إنما ذكرت لك هؤلاء فرحاً أن الزمان والحمد لله لم يخل من الرجال

الجارين على أسلوب المتقدمين باختلاف أحوالهم فقد ذكرنا منهم ما حصل به المقصود من الفائدة والاختصار ،وأما أنت فلا يتمكن لي أن أخاطبك بأحوالك . ومقصودي بهذه الرسالة إبراز معرفة نفسانية وربانية تحرض على الكلم الطيب والعمل الصالح فإنما الرجل عندنا هو العالم بالله الكادح فأخاطبك يا وليي وأريد والله نفسي أنبهك وأريد أبناء جنسي وعني أكني فلا تعتز النفس عن الذكر فإنها الذليلة ولا تعم عن حظها الإلهي بتصاممها عن هذه الفضيلة .

مسألة : فمن ذلك : ﴿**فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ ، ﴿**وإن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ لتعلم أن الله تعالى خلق كل ما سوى الإنسان باليد الواحدة وقد جاء التنبيه عليها في مواضع من الشريعة في جنة عدن أنها خلقها بيده وهنا بحر طامس خلق الأسباب كلها بيده وخلق المسببات أيضاً بيده لكن الأسباب الأول ليست في المرتبة كالأسباب الثواني إلى آخر سبب وقال في خلقه الأسباب ومسببات الإلهي الخلق والأمر وقال في الأسباب وحدها : ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ ، ﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون**﴾ فذكر الأمر دون الخلق فألق بالك لكلامي هذا فإنه عويص وأنا غيور أحب أن أوضح واحب أن أستر فخلق الملك والجنة وما يتعلق بهذا الجنس من الشرف والرفعة بجانب الطور الأيمن فافهم ما أومئنا إليه من صفة الجمال وخلق إبليس والنار وما يتعلق بهذا الجنس من الوضاعة والسفل بالجانب الغربي من «كلتا يديه يمنى» فافهم ما أومئنا إليه من صفة الجلال وتمهدت المملكة باليدين وظهر وجودها في العين على التوحيد المطلق من حيث كل واحد منهم يرجع خلقه إلى يد واحدة فعبد ربه من حقيقته واشتغل بطريقته فلم تتصور معصية ولا مخالفة إلى أن خلق الإنسان بيديه وهداه نجديه وأوضح سبيله وأظهر به كلمتيه وبان به عن قبضتيه فنظر إلى العالم ونظر إليه العالم في مملكتيه الكبرى والصغرى فعرف كل واحد ما رأى منه لأنه رأى ما بقابله فالساكن من العالم في

الجانب الغربي رأوا أسفله فلم تقدم عندهم قيمته فظهرت في ذلك قبضتهم ليعلموا أنهم أشقى والساكن من العالم في جانب الطور الأيمن رأوا علوه فقامت عندهم عظمته وظهرت في ذلك قبضتهم ليعلموا أنهم سعداء ثم لما كانوا في نور التجريد لم يستطيعوا أن يعرفوا نور التمريج ولما كانت حقيقتهم صادرة عن اليد الواحدة شهدوا لأنفسهم بالتقديس والتحميد ولما رأوا توجه اليدين على الإنسان عرفوا أنه لا بد من المنازعة لإمضاء الحكم وإذا كانت المنازعة فلا بد من الفساد فنظروا حقاً وقالوا صدقاً (صلوات الله عليهم) فأعرض الله عن إجابتهم في نفس كلامهم إعراضاً صحيحاً من جهة جعلهم الكل جزءاً وحكموا عليه بصفة النقص فتركهم الحق وما عدلوا إليه وأراد أن يبين لهم حقيقة ما فطره عليه وأن الإنسان هو القبضة الجامعة للعاصية والطائعة وأن كل العالم على النصف منه فهو أيضاً على النصف من الحضرة الإلهية وأن الإنسان كل فهو على الكل من الحضرة الإلهية فجمع له بين يديه لتكمل صورته وتصح خلافته وتبين مرتبته ويعلم أنه أشرف موجود وأعلى مقصود ولهذا مدحه لمن نظره بعين النقص ـ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ـ في معرض الثناء فعرض في أدبه بغيره وهو الذي حكم عليه بالفساد وسفك الدماء فما أحسن أدبه عرض في آداب الملائكة بإبليس فطالبهم بعلم الأسماء وجعل الإنسان عالم العلماء وعرض في آداب إبليس بالملائكة بخلقه بيده المقدسة والبيضاء فاتعظ إبليس بأدبه وآداب الملائكة واتعظت الملائكة بأدبهم وأدب إبليس فهؤلاء اتعظوا بإمتثال الأمر ففازوا وهذا اتعظ بعد المخالفة فما نفعته موعظته وخسر فلا شيء أنكا على إبليس من ابن آدم في جميع أحواله في صلاته من سجوده لأنها خطيئة فكثرة السجود تحزن الشيطان وطوله وليس الإنسان بمعصوم في صلاته إلاَّ في سجوده فإنه إذا سجد تذكر الشيطان معصيته فحزن فاشتغل عنك بنفسه ولهذا قال (عليه الصلاة والسلام) «إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبرأ يبكي» فالعبد في

سجوده معصوم من الشيطان وليس بمعصوم من النفس فخواطر السجود كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية وليس للشيطان عليه من سبيل وإذا رفع من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه واشتغل بك ولعل وليي (رضي الله عنه) يقول والنفس أيضاً تزول في السجود والملك يزول ولا يبقى إلّا الحق فإنه يقول ﴿واسجد واقترب﴾ فقد صحت القربة بالسجود وفني الساجد بالموجد عن الموجود فأقول له نعم يا وليي ما نظرت وبحالك ومقامك قضيت ونحن إنما نتكلم بما تعطيه الحقائق وكيف ارتبطت الدقائق ولو كان الأمر على ما قاله وليي لكان كل إنسان في سجوده بالله عارفاً ومعه واقفاً فانياً عن الإحساس بعيداً عن الإلتماس ولم يصح منه دعاء ولا ثنء ولا تضرع ولا بكاء فإن التضرع والدعاء نداء على رأس البعد بالحجاب ، والمشاهدة للبهت غير اكتساب فإن وجد وليي مقام البهت في سجوده فتلك حالة لا تطرد حكماً فإن غيره في سجوده يقول رب اغفر لي مغفرة عذباً فهذا مع الملك حتماً وآخر في سجوده يتحدث مع شريكه في دكانه حرباً وسلماً فهذا مع نفسه إما وإما . . رجعنا إلى كلامنا فأضاف الإنسان إلى يديه ووكل أمره إليه وسخر له ما في السموات وما في الأرض وحجبه عن التوكل إليه فظهر الإنسان لنفسه في نفسه إماماً فالسعيد من لازم الباب لرفع الحجاب والشقي من نبذ ذلك الباب وراء ظهره فحسبه جهالة ما جهل من أمره لا ما جهل من غيره ولما قام الإنسان خليفة في الأرض دون السماء لحملها العالمين على السواء فقد جمعت جميع العالم وهي أقل الأجزاء فمن وليي الأرض وليي السماء والنار والماء والهوى ومن وليي السماء فما وليي الأرض وما له من الميزان سوى الرفع وليس له نصيب في الخفض . دليلي على ذلك أيها الولي المالك أن الأرض تحمل الملائكة الكرام وليس السماء يحمل للشياطين ولا لعوالم الأجسام ولهذا كانت الأرض حضرة الخلافة ومنزل الخليفة والسموات فردوس من فراديسه ومتنزه من متنزهاته سرح روحه القدس فإن السماء -

وأعني بـه العالـم العلوي ـ مـوجود من الـرحمة الخـالصة ، وإن الأرض ـ وأعني به السفل ـ حيث أنـزل آدم (ع) بعد ـ أحسن تقـويم ـ إلى ـ أسفل سـافلين ـ موجـود من الغضب الخالص فـإن قلت فهذه الـرحمة الـظاهرة فيهـا فتلك رحمة الإنسـان ولهذا إذا لم يبق إنسـان عليهـا زالت الـرحمـة بزواله وتـوجه عليهـا فأعـدم عينها وهلكت في الهـالكين وانتقلت العمارة إلى الـدار الآخرة بـانتقـال الإنسـان فـإن قلت وقبـل الإنسـان قـد كـانت الأرض مـوجودة فـذلك لحقيقتين لأن ذلـك كان زمـان التمهيـد للخليفـة والحقيقة الأخرى لحقيقـة البرزخيـة فيها لأنهـا تشبه العـدم لكونهـا تؤول إلى الفناء وتشبه دار البقاء لأنها قد وجدت يـوماً فهـذه النفخة الـرحمانيـة في الـوجود هي التي أمسكهـا حتى ظهر الإنسـان فافهم ولا تقتصـر بهذا على آدم (ع) فحسب فكـل صالـح من المؤمنين وغيرهم في وجوده قطب ولم يبق إلاّ خليفة جائر وخليفة عادل فإما إلى عذاب غيـر زائل وإمـا إلى نعيم طـائـل ومن هنـا وقـع الخـوف على الخلفـاء وأنت وأنـا مـن جملتهم . . فنـرجع إلى نفـوسنـا في هـذه الحـالـة العميـاء ونقيم عليهـا ميـزان القضاء وأحكم على السـواء بمرتبتهـا التي وجـدت لهـا ومنـزلتهـا العالية السنـاء فأقـول : يا نفس يـا برزخـا بين الضراء والسـراء اصطفـاك الله دون أهل الأرض والسماء وجمع لك بين يديه إمـا للشرف الـذي لك عنده أو للإبتـلاء ومحال أن يكـون الشرف لقبضـة الأشقياء وإنمـا الشرف فيـه مـوطن في مقـابلة الخصمـاء فلم يبق أن يكـون ذلـك إلاّ لمجـرد الإبتلاء قال تعالى : ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾ ولم يقل ليشـرفكم خـطاب يشمـل جميـع المـأمـورين والأمـراء فمن نصب هـذا المنصب وذهب به هذا المذهب كيف يطيب له معاشـه أو يستقر بـه فراشـه وهو لا يـدري أي اليدين يحكم عليـه وبأي العين من العينين ينظر إليه فـواجب عليك يا وليي محافظة السر والوقت مخـافة أن يفاجئـك نظرة المقت وأنت لا تشعـر بذلـك فتكـون عنـد النـاس السعيـد وعنـد الله الشقي الهـالـك وحكم الله أمضى وحاكمه أقضى فالويـل لمن اغتر ولـو بشر والـويل كـل

الـويل لمن اغتـر وهو لم يبشـر . هـذا عمـر بن الخـطاب(رضي الله عنه) الصلب القوي الذي ليس للشيـطان عليه سبيـل حسب الشيطان أن ينجـو منه نزل القرآن موافقـاً لحكمه وأداه أن يقـول«لو كشف الغـطاء ما أزددت يقينـاً» ما يعـرفه من إيمـانه وعلمـه قد جمـع بين العلم والعيان وتبـرز في صـدر المشاهـدة الأعيان ليس أحـد من وقته إلى يـوم القيامـة يبرز أمـامه ولا يكون في حالة من الأحوال أمامه قد اهتز لمـوعظة أويس القـرني خير التـابعين همة وقـال ما أداه إليـه كشفه وعلمـه المعصـوم : ليت عمـر لم تلده أمـه ، فكيف ينبغي أن أقـول أنت وأنـا إلى متى هـذه القبيحـة على الله تعـالى أما آن لنـا أن نرجـع أما حـان لنا أن نـرعوي ونقلع وقـد دعينا بالعارفين بـالله ونحن في حزب إنـا لله أترضى لنفسـك أن تكون صـاحب حـال فيحكم عليـك هـواك وتغلب عليـك دنيـاك ويلتبس أن ذلـك من مولاك هلا أقمنا عليها ميزان العدل وطالبناها بصحة النقـل فإنهـا لا تخلو في إتساعها في دنيـاها بعـد ضيقها وراحتهـا بعد جهـدها من أحـد أمرين إما أن تكون في ذلك تستر مقامها عن النـاظرين وتعمى مكـانتها عن أبناء الـدنيا المفتكين وتصـول بذلـك على المتـرفين وتسعى في الكسب حتى لا يكـون عليها يـد لأحد من المحجـوبين فإن كـان هـذا فيـاجهـل هـذه النفس ويـا حسرتهـا فلا حـال لها ولا مقـام عظمت الـدنيـا وأبنـاؤهـا في عينهـا فصادمتهم وقـابلتهم وأين هي من جناح البعـوضة ومن تشبيـه النبوة لهـا بالمـزبلة والجيفـة إلى هـذا بلغت منـزلـة هـذه النفس الـركيكـة مـع دعـواها أنهـا السيدة الملكيـة إن كنت تقول الحق وعـزمت على مصادمـة الـدنيا ومنـازعة أبنـائها فـاستند إلى الحق في خـرق العوائـد فـإن النـاس كلهم ينفقون من الجيب وصاحب الحـال إنما ينفق من الغيب فـإذا رأيت نفسك تحيد عن ذلك فلا تغالط وكن لها المجـاهد والمـرابط ولا يغرنـك حـالة طـرأت عليك في بـدايتـك وافقت وقت صـدق منـك فتخيـل أنهـا أبقيت عليـك والعـادة طبيعـة خـامسـة ومـا عسى الـدنيـا وأبنـاؤهـا حتى تشـاركهم فيهـا وتقـول أرى أن لا يـأكلوا عنـدي ولا آكـل عنـدهم ولا

يزوروني ولا أزورهم : كل ذلك حظ نفساني وتلبيس شيطاني فإن كنت عبدت الله لتعبك ، فقد حصل لك أجرك في الدنيا ، وساء منقلبك في العقبى ، وإن كنت عبدت الله لحظ نفسك في الآجل إما لكونها عبداً فتحشر مع النبيين وإما لكونها أجيزت الحسنة بعشر أمثالها فتحشر مع المؤمنين فأزور ، وأزار وأقصد وأُقصد ، وهذا حال النبي (ص) كان يزور ويُزار ويحمل الكل ويعين الضعيف ويقري الضيف ولا يبيت على معلوم ولا يجزع من الفقر . ألا إن الفقير العارف من لا يبكي غده من أجل رزقه فكيف من أجل خلقه وبهذا تغالط النفس فتقول إنما أمسك هذا الشيء في حق الغير لا في حق نفسي قال الله تعالى يكذبها : ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق**﴾ ومحال أن الله يطعم فلم يبق إلاَّ أن يطعم من أجله ، فمنع من ذلك السادات الكبراء وأبقى في حالة العامة الضعفاء ونفسي تدعى الخروج عن العامة فقد لزمها أن تخرج من السعي والإدخار في حق الغير ، فإنه شرك محض ، وطعن في القدرة كما أن المتسبب إذا لم يقدر على الجلوس مع الله مطعون في إيمانه فهذا هو الأمر الواحد من الأمرين فقد بطل دعواها فيه في اتساعها في الدنيا بعد تضييقها وإن كان يريد الإنصاف من نفسه وهو عند الأكابر مقام نازل ولكن لهذا أن يفعله فإنه ليس من الأكابر حيث رأى للدنيا وأبنائها حظاً وقدراً فيصول عليهم ويتعزز هلا شغلته عبوديته مع عزة الله عن عزته مع ذلة الخلق ، ولقد فاته حظه من الله ـ نسأل الله جميل العاقبة ـ وأن يطعم الخلق ولا يأكل منه ألبته فإن أكلل فلنفسه سعي ولها أدخر . وأما الأمر الآخر الذي وسعت به النفس عليها بعد تضييقها فهو أن يتخيل أن ذلك لا يؤثر في مقامها ولا ينقص لها من مكانتها ولما كانت غير عاملة للثواب وإنما عملت للعبودية فلا تبال في أي واد مرّ بها إذا صح حالها مع الله ، وليس ثم أمر ثالث والحمد لله . فإن كانت فعلته لهذا فلا تشك أصلاً في جهلها وتغريها في نفسها لوجوه كثيرة تدل على جهالتها منها جهلها

بالموطن حيث عاملته بما لا يليق به فإن «لدنيا سجن المؤمن» وهي سجن المؤمنين وأنت تدعي أنك فوق الإيمان وأنا ما أسلمه ولكن صاحب السجن قد أرسلك اليه وأدخلك مع المؤمنين وسجنك معهم بما حجره عليك فلا تقرر أن تشرب خمراً ولا أن تكذب في حديث ولا أن تخلف وعداً ولا أن تحلف فاجراً ولا أن تنكح خمس حرائر وتوجه عليك ما توجه عليك مثل المؤمنين المسجونين فالحكيم يتنبه ويعرف أن ذلك موطن التكليف وقد لزمه ما لم يكن لزمه وهو خارج السجن فيقول هل هنا أحد من حضرة الملك من طوري وممن هو أرفع مني ، فيجد الأولياء والأنبياء والمرسلين فيقول لنا بهم اقتداء وأنا منهم وهذا أكبر الدعاوي وأنا أسلمها وبهذا أمر الله نبيه أفضل الخلق فذكر الأنبياء وما أعطاهم ثم قال له : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فتنظر في حال الأنبياء فتجد سيدهم وإمامهم أختار الفقر على الغنى والذل على العز للمؤمنين وقد خيره حين نزل عليه إسرافيل فقال «إن الله خيرك إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً فأشار إليه جبريل أن تواضع فقال نبياً عبداً» قال (عليه الصلاة والسلام) لو قلت نبياً ملكاً لسارت معي الجبال ذهباً وفضة فأعطته المعرفة والهمة حين أشار إليه شيخه بالأولى تمنى العبودية فلازم الفقر والذلة والخضوع حتى كان يشد الحجارة على بطنه من الجوع فهلا اقتدا بهم هذا الشخص ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا ولو علم أن المراتب في الجنة على قدر المراتب عند الله لسعى لنفسه ولعقله وكان من الملوك في الجنة وعند الله تعالى ولا كان يتكل على معرفته ويقول بكمال عقله ويجنح إلى الراحات ويكب على الشهوات ويتنعم في لين الثياب ولذيذ الطعام والشراب وأخوه المؤمن لا يجد ما يأكل فيقال له واسه فيقول حتى يخطر لي ، ما ألقي الله عندي فيه شيئاً ، ما أجهله بخاطر من الحق إنما يفعل العارفون ذلك فيمن لم تبد منه حاجة ويظهر عليه الغنى وهو فقير فيخطر للعارف أنه فقير وهو كشف وإما من ظهر حاله وبانت فاقته فهي الخاطر الذي أعطاك الله فيه وأنت لا تشعر وهي أقوى

حجة عليك فلا تغتر يا من زاحم الأنبياء بجهله : ـ سليمان ويوسف (عليهما السلام) ـ ولا بقوله تعالى : **﴿هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب﴾** وأنا أقول مثل ذلك في العارف الذي يرى يده عارية في المنع والعطاء وأن الحساب عنه مرفوع ولكن المواطن تعطيه أنه إذا كسب الدنيا أنه يتأخر عن درجة الذي لم يكتسب ضرورة في الشفاعة وفي دخول الجنة وفي المنزلة عند الله وفي الدنيا فإن الغني يزور الزاهد والأمراء الصادقون يزورون الفقراء الصادقين وهنا سر عال أخاف من الفتنة في كشفه وإذاعته فسترته رحمة للعالم حكمت علينا به الحقائق يؤيده من الأخبار «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي» هذا باب فالفقير يدعوه إلى السكون كسر فقاره فابحث عن السر ولا تفشه ولا تعتمد ولا تجعل حقيقة تحكم عليك فالموطن لا يعطيه ولا تترك حقائق حكمة كثيرة يعطي استعمالها سعادة لحقيقة واحدة يعطي استعمالها إما شقاوة وأما نقصاً في المرتبة ، فالله عليها كن لها كتوماً إن وقفت عليها وقد نبهتك على طرف منها والله المستعان ، ويكفي هذا المقدار من الوجوه الذي يحتمله هذا الأمر الآخر فهذا الإبتلاء الذي ذكرناه يوجب علينا الجد والاجتهاد والتجرد عن الدنيا وأسبابها والتفرغ للعبادة كما كان الأولياء والسادة النجباء مثل أبي بكر وغيره وقد مشى طرف من أخبارهم في أول هذه الرسالة وأما إن لم تنظر في خلقه لك بيديه ابتداء ونظرته شرفاً ورفعة وهو نظر جهل كما حمل الأمانة لحقيقته ولم يحملها غيره ولكن قيل فيه ـ ظلوماً جهولاً ـ فلو حملها جبراً لما نسب إليه الظلم والجهل ولما حملها اختياراً نسب إليه ذلك فاعلم هذا وأنا أسلم لنفسي هذا الجهل وأقول لها إنما خلقك بيديه لشرفك على جميع الموجودات وجعلك إنساناً ولم يجعلك ملكاً ولا شيطاناً فاتصلت على النصف من المعرفة أنظري يا نفس إلى حال من خلقت نشأته على نصف المعرفة قال الله فيهم : **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** **﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**

﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ هذا شكرهم على معرفتهم وهي نصف المعرفة وأنت قد أنشئت من مقام المعرفة بكمالها والصورة الإحاطية والاستخلاف الإلهي فكان ينبغي أن يكون شكرك أتم من شكرهم وزكاتك أعظم من زكاتهم لأن معرفتك كلية فكان الأولى بك أن تقوم الركعة الواحدة مقام عبادة أهل السموات، والأرض فإياك أن تحجب نفسك بأن تقول يا أخي : كاتب هذه الرسالة ما عرف مقامي ولا من أنا فما قصدتك بالكلام وإنما تكلمت على ما تقتضيه الحقائق وحصرتها حصراً إحاطياً وكشفتها كشفاً اعتصامياً لم يبق ملك ولا رسول ولا نبي ولا ولي ولا أحد إلّا دخل في هذا الحصر ، فلا بد أن تكون يا قاريء هذه الرسالة واحدا من هؤلاء الأقوام والطبقات وأدعى فيمن شب فقد سلمت لك ولو أدعيت الملكية وحدها و الرسالة أو النبوة أو ما أدعيته : الحقائق تحكم عليك قسراً وتردك إلى العبودية وإلى الموطن إن عصمت ، وإن خذلت عميت عن الحقائق واستعجلت الآجلة وأجلت العاجلة وجعلت غيرك المحجوب وأنت العاقل عن الله المصيب ، فإذا انقلبت وجدت عملك هباء منثوراً وطردتك الحقائق السعادية عن بابها وقالت لا أعرفك فإنك ما صاحبتني في الدنيا ولا تعرفت إلي ودعاك خيالك الفاسد القاصر فرمى بك في سواء الجحيم فكيفما نظرت في خلق الحق لك بيديه : إن كان إبتلاء فلا بد من الجذر والوزن مخافة النقص والتطفيف وإن كان شرفاً ورفعة فلا بد من الجد والاجتهاد في الشكر كما قال (عليه الصلاة والسلام) «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً» وكما قال بعض العارفين وقد رأو صوفياً يضحك ملأ فيه لا يخلو أن تكون بشرت بسعادتك أم لا فإن كنت لم تأمن فما هذه حالة الخائفين وإن كنت أمنت فما هذه حالة الشاكرين فقد ناط به الذم من الطرفين في ضحكه فكيف لو رآه متنعماً مترفاً ويجمع ويدخر ويمنى نفسه بالغرور وقد تقدم حديث سلمان الفارسي في وقت ذكره لما فتح الله به على بعض الصحابة والتابعين

من كنوز كسرى وقيصر وإن الله ما أختار لنبيه الدنيا بل اصطفاه فقيراً لا يبيت على معلوم في البيت حتى مات وأشباه ذلك ، فإياك يا وليي والمغالطة فإن الناقد بصير وإليه تصير الأمور وقد مضت العبارات وما بقيت إلاّ تسبيحات فلا يغتر العالم بعلمه ما لم يستعمله ولا يغتر بإستعماله ما لم يخلص ولا يغتر بإخلاصه ما لم يفن عنه . هذه مسألة من تحقق بها وبمعانيها لم يسكن له جأش ولا يطيب له عيش يشتغله شأنه عن كل شأن لما يؤول إليه حاله فإن قوارع القرآن تزعج العاقل اللبيب وتنغص حياة الفطن المصيب مثل قوله تعالى : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ وقوله : ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ وقوله تعالى : ﴿**سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ وأمثال هذه القوارع والزواجر المتلوة في المحاريب والمحاضرة تقرع أسماعنا آناء الليل وأطراف النهار ، فلا معرفة ثابتة في القلوب فيردعنا الحياء ولا خوف فيكفينا الوعيد والتقرير فلا ندري في أي نمط نتميز ولا بأي فرقة نلحق نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين وفي جميع الأحوال هنا وعند الموت وفي المآل العافية . ومما يحض العقل السليم على الاجتهاد ويحول بين جفنه وبين الرقاد نظره في النعم المترادفة عليه إذا حققها وذلك يا وليي (أبقاك الله تعالى) إن أول نعمة عقلتها من ربك إخراجك من العدم إلى الوجود وقد عدد هذا المقام عليك من جملة نعمه فقال : ﴿**أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً**﴾ ثم خاطب بهذا المقام الخاصة الرفيعة من عباده الذين نحن اتباع لهم فقال لنبيه زكريا (ع) في وقت تعجبه من قدرة الله تعالى على حكم العبادة في إيجاد ابنه يحيى (ع) : ﴿**وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً**﴾ فإياك أن تتوهم أن هذا الخطاب لزكريا في حق نفسه لابطال المعنى فيه فإن خلق ابن آدم أعجب من خلقه في حكم العادة لأن زكريا (ع) قد أظهر العلة فلو أحاله على خلق نفسه لما أتاه بأعجب مما تعجب منه وإنما أشار إليه بذلك أن ينظر في أول موجود وهي الحقيقة الإنسانية قبل كل شيء وهي أم الأشياء كلها ، وليست من شيء وهي

سبب كل شيء ، وليست مسببة عن شيء، ولهذا قال له : ﴿**ولم تك شيئاً**﴾ فإن هذا الخلق الترابي الآدمي مسبب عن أشياء نبه عليها (عليه الصلاة والسلام) بقوله : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» ولا يكون العدم بين أمرين موجودين لانحصاره ، وأوصوف لا يوصف بالحصر في شيء وقال الله تعالى في خلق الجسد الادمي ﴿**خلقكم من تراب**﴾ ثم طين وهو خلط الماء بالتراب وقال ﴿**من حمأ مسنون**﴾ وهو المتغير الريح وهو جزء الهواء وقال ﴿**من صلصال كالفخار**﴾ وهو جزء النار فهذه أمهات الجسد الأدمي وهي كثيرة فلا يصح على هذا قوله : ﴿**ولم تك شيئاً**﴾ فإنه قد كان شيئاً وانتقل في أطوار العالم من شكل إلى شكل حتى صار على هذه الصفة ، وكذلك قال في جسد ابن آدم كما قال في الجسد الأدمي من توقفه على شيء وأن أصله ذلك الشيء ، والصورة في عرض فيه فقال : ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ وإياك أن تقول في وقت كذا كذا لم نكن كذا وقد نبه تعالى على أنك هو ذاك وأن أصل جسمانيتك من شيء فقال : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من تراب**﴾ وهو الأب إن شئت ﴿**ثم من نطفة**﴾ وهي الابن ﴿**ثم من علقة**﴾ تمييز في طور آخر ﴿**ثم من مضغة**﴾ تمييز آخر في طور آخر ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾ فجعلك من شيء وهذا طور ﴿**ثم جعلناه نطفة في قرار مكين**﴾ هذا طور آخر ﴿**ثم خلقنا النطفة علقة**﴾ هذا طور آخر وكله الإنسان ﴿**فخلقنا العلقة مضغة**﴾ هذا طور آخر ﴿**فخلقنا المضغة عظاماً**﴾ هذا طور آخر ﴿**فكسونا العظام لحماً**﴾ هذا طور آخر ﴿**ثم أنشأناه خلقاً آخر**﴾ هذا طور آخر ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ أثنى على نفسه يعلمك صورة الثناء عليه لتشكره لا لتكفره وهذا كله إنما ذكره ليعدد نعمه التي أختصك بها وحباك وهذه كلها أشياء علق وجود بعضها على بعض فقوله على ما تعطيه الحقائق ويعظم التعجب عند زكريا (ع) : ﴿**وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً**﴾ إنما يشير إلى

البروز الأول من غير شيء لأن زكريا (ع) إنما تعجب من بشراه له تعالى بيحيى على كبره وامرأته عاقر ، فذكر له ما هو أعجب من ذلك وهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود فإن النقلة في مراتب الوجود من وجود إلى وجود باختلاف الأحوال أهون من إبراز المعدوم ، فلهذا كان أعجب مما تعجب منه زكريا ومن هذا تعجبت امرأة إبراهيم (ع) حين بشرت بإسحاق (ع) فقالت: **﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾** وهذا يا وليي إذا نظرته من الأسرار العجيبة فتنبه له وعسى أن تعثر على الفصل بينهما وذلك أن الله قد أخبرنا عن زكريا (ع) بما أخبرنا عن امرأة إبراهيم (ع) فبشرك بين المرأة والرجل في هذا التعجب وبشرك بينهما في العلم لأن التعجب على قدر العلم ومعلوم فضل الرجل على المرأة في الميراث والشهادة والصوم والصلاة **﴿وللرجال عليهن درجة﴾** وهذه المسألة مسألة مفرعة لتعلقها بباب المعرفة وقد أشترك فيها نبي الله زكريا (ع) وامرأة وليست بكاملة فحقق خاطرك يا وليي في هذه المسألة عسى تعثر عليها وكنت أذكر لك وجه الفصل بينهما وأبينه وأكني رأيتك تحب أن تأخذ العلم من ربك فناديت معك وأبقيتها مهملة قال الله تعالى جواباً لزكريا (ع) : **﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾** وقال تعالى جواباً لامرأة إبراهيم (ع) : **﴿أتعجبين من أمر الله﴾** ولوحنا لك وألقيناك على الطريق فادرج عليه فإن ما بينك وبين العلم إلاّ كلمة واحدة وهذا غاية ما قدرنا عليه في حقك من تقريب المسألة إلى هذا ، وسترناها خلف حجاب واحد رقيق والخطاب على قدر العقل فانظر يا وليي أول نعمة أنعم بها عليك لو كلفك الله شكر هذه النعمة وحدها وجعل معك أهل السموات والأرض بعبادتهم مؤيدين لك عمرك الآخروي الذي لا نهاية له ما قمت بشكرها ، كيف وقد انضاف إليها نعم كثيرة غيرها ثم طالبك في الشكر والعبادة على قدر استطاعتك خاصة ، فأبيت الإنصاف وتكاسلت وتخاذلت وتعاميت وتصاممت ما هذا ممن يدعي العقل والمعرفة

بحسن . إنمـا يقـع الاعتـراف بـالتقصيـر بمـا ينبغي لجـلال الحضـرة من الاجتهـاد بعد بـذل المجهود ، وإيـاك وشـطحـة من شـطح السكـر غلب عليـه فقال إني أغـار على جمـال القـديم أن يـراه المحـدث من تـدنيس رؤيتـه فهذه كلمـة ليس لها مـدخل في الـرجوليـة وإنما هي شـطحـة من صورة وقف القائل معها تردها الحقـائق أو تغتر أيضـاً بقول القـائل : «من ظن أنه بالجهد يصل فهو متعن» فقد قـال هذ أيضـاً «ومن ظن أنه يصـل بغيـر الجهد فهـو متمن» فقـد أشـار إلى مـا نـدبنـاك إليـه ببـذل المجهود وصحـة القصد ولا وصـول إلاَّ برحمـة الله قـال الله تعـالى في المتمني : ﴿وغـرتكم الأماني﴾ فـذمه وقـال في المتعني : ﴿فنعم أجـر العاملـين * والـذين جاهـدوا فينا لنهـدينهم سبلنا﴾ فمـدح المتعني فإن كـان ولا بـد فـالتعني أولى وإن استطعت الـدعوى مـع وجـود التعني وعـدم الإلتفـات إلى نتائجه إنما يكون خـالياً من جميـع أعمالـه وهو فيهـا متعرض لنفحـة من اجتهـاد نفحـات الـربـوبيـة لأن العبـادات بحكم التسخيـر إنمـا هي للفقهـاء العامـة الذين أعمـاهم الله عن الحقائق فقيـل لهم قدمـوا لتجدوا وهؤلاء هم الجهال عندنـا وعليهم توجـه التكليف مطابقـاً لاسمه فيـدخل عليهم في أداء العبـادة من الكلفـة والمشقـة مـا لا يعلمـه إلاَّ الله وذلـك لعدم معرفتهم بمعبـودهم واشتغالهم بشهـوات، نفوسهم وحـظوظها عـاجلة وآجلة وأما هذه الصوفية المحققـون فعبادتهم لا بحكم التسخيـر لكن من طـريق الشكر بشهـادة الغنى على ملاحـظة العمل ونتـائجـه فلم يقـدموا أعمالهم ليجدوها ويلحقوا بهـا وإنما عملوا لأن السيـد قال لهم اعملوا ، فلهم العمل والطرح ، وللسيد إن شاء القبول وإن شاء الـرد فهؤلاء توجـه عليهم بـالتكليف وارتفع عنهم معنـاه أي ما فيـه من الكلفة والمشقـة لقوة معرفتهم بمعبودهم واشتغـالهم بحقوق معبـودهـم عن حقوق نفـوسهم فلم يتصـور لهم أن يطلبـوا أجراً إنمـا هو في كـل نفس معـان فيمـا كلف في ذلـك فهو يجني والبـاري تعالى يـدخـر لـه ، والفقيـه الضعيف الجـاهـل صـاحب علم الرسـوم الذي قـد ختم الله عى قلبه بشهـواته فتـراه يلتفت

يميناً وشمالاً في صلاته ويحرم الإمام ويبقى هو بعده بقدر ركعة في حضور نيته للصلاة لكثرة شغله عنها بهذيانه ودنياه وكثرة غفلاته ثم يكرر التكبير مرتين وثلاثاً وأربعاً في النية لعدم صفاء قلبه وترادف ظلماته فإذا سهل الله عليه وأدى ما كلفه الله تعالى فهذه حالة المجتهد الحازم وساق هذه الجناية المسودة الوجه بعدم الحضور فيها مع الله تعالى وسوء ظنه بربه كيف يكون له ذلك العمل مدخراً عند الله تعالى حتى يجده عنده لعدم تطلعه إلى فضل الله عليه فيه فيجنح إلى عمله وهذه كلها علالات فاسدة ولكن كما قال الله تعالى : **﴿وقد خلقكم أطواراً﴾** فلذلك أكثر الشريعة تجري عليهم رحمة بهم لضعفهم وهم في عماية عن ذلك بل من عظيم جهلهم أنهم ما عقلوا عن الله رحمة هذه بهم وتخيلوا أنهم إذا فعلوا هذا واقتصروا عليه أنه لا شيء أعلا منه والخلق دونه لحفظه الحديث والفقه ويُقال له يا فقيه ما تقول في رجل حلف على كذا فيحكم فيها بحكم الله المشروع ويحجبه عن ذلك المنصب عن القلب المختوم عليه بحب الدنيا وتعظيمها ونظره الفقراء وأولياء الله تعالى بعين الازدراء والجهل لكونهم لا يعرفون مسائل العتق والطلاق والنكاح فهم الغمر الجهلاء ، فهذا وأشباههم حجبهم عن الله وطردهم عن بابه وما زالت الفقهاء في كل زمان مع المحققين بمنزلة الفراعنة مع النبيين .

ثم ننتقل يا وليي إلى الأم الثانية من هذه النعم الثانية وهي أن تنظر إلى كونه أوجدك متغذياً نامياً ولم يجعلك جماداً صلداً وإن كانت الحجارة والجمادات عندنا على خلاف ما يراها الناس كما قال الله تعالى : **﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾** فوصفها بالخشية وغيرها وقال تعالى : **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾** وقال تعالى : **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾** وقال تعالى

للسماوات والأرض : ﴿إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ وقال : ﴿يا جبال أوبي معه﴾ أي رجعي معه التسبيح وسيري معه وقال : ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره﴾ وقال (عليه الصلاة والسلام): «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي» وقال في أحد : «هذا جبل يحبنا ونحبه» وقال موسى (ع) : «ثوبي حجر ثوبي حجر» يناديه وسبح الحصى في كفه وما أشبه ذلك فالجمادات عندنا عالمة بالله تعالى ناطقة به في عالمها وهي على حسب أفقها وفلكها ولها نذير من جنسها وهي عندنا أمة من الأمم قد فضل الله بعضها على بعض فكانت القدرة ممكنة لما أوجدتك ولم تك شيئاً أن تنزلك في أمة الجمادات ولكن مقام النبات أعلى وأمته أفضل فجعلك متغذياً نامياً ولم يجعلك جماداً وهذه نعمة كبيرة لا يؤدي شكرها ولا يقدر قدرها فاجتهد عافاك الله جهدك فإنك مسؤول على قدر معرفتك وتدقيقك فإن العوام ما تسئل عن هذه النعم التي ذكرناها ونسأل نحن عنها فسؤالنا أشد فينبغي أن يكون عملنا أتم ولا تكن يا وليي كقوم رأيتهم فأبنت لهم ما لله عليهم من النعم ليجتهدوا وأمرتهم بما أمرتك وأمرت به نفسي فأبوا قبول ذلك وقالوا ـ كل واحد منهم لما أراد الله خذلانه ـ : إن العبد لا يفي أبداً بشكر نعمة واحدة مما أنعم الله به عليه فكيف أن تستغرقها فالتعني لا فائدة له فقلت صدقتم في أن أحداً لا يفي بشكر الله تعالى فإن الشكر منه على النعمة نعمة ولنا في هذه المعرفة ذراع أطول من ذراعكم وأزيد مما عرفتموه ولو عرفتموه ما عبدتم الله أبداً مما ترون من الحقائق ، وأنتم قاصرون ، ولكن ينبغي للعبد أن يبذل الطاقة التي أعطاه الله تعالى في مرضاته على الاستبقاء فإذا لم يبق له اتساع حينئذ يقول إنه لا يفي وإن ذلك عقد في القلب والجوارح تنصرف بالأعمال فإياك والبطالة فقد تقدمك النبيون والمرسلون والملأ الأعلى من الملائكة ، والعارفون وصالحوا المؤمنين بالاجتهاد والكد مع صحة التوحيد والمعرفة والقصد وما قال بقولك هذا إلّا الإباحية والمنحلة عقائدهم الذين قالوا بإسقاط

الأعمال نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين العصمة في الحال والمآل . ثم زادك الله نعمة على هذه النعمة بأن نقلك من أمة النبات والشجر الى أمة الحيوان فجعلت حساساً فوجب عليك من الشكر والعبادة ما وجب على الجماد والنبات والحيوان فإنك قد جمعت حقائقهم وزدت على كل واحد منهم فينبغي لك أن تعمل على كشف عبادة العالم سفله وعلوه وما هم فيه فتأخذ نفسك بعبادة كل طائفة منهم فإنك مشارك لهم في حقيقتهم ولهذا أنت الأم الجامعة لحقائقهم ، ثم إنه ما منها من أمة من الجماد والنبات والحيوان وغير ذلك إلاّ ولهم عبادتان عبادة تعم الأمة كلها وعبادة تخص آحاد الأمة كما قال تعالى : **﴿وما منا إلاّ له مقام معلوم﴾** فهذه عبادة الأشخاص على الإنفراد وأنا لا أطالبك بعبادة الأشخاص وإنما أطالبك بالعبادة التي يشترك فيها جنس تلك الأمة وإنما يتوجه عليك عبادة أشخاصها وإذا أوقفك الحق مع واحد منها فحينئذ وفي جملة أشياخنا الذين انتفعنا بهم في طريق الآخرة في هذه الأمم ميزاب رأيته في مدينة فاس في حائط ينزل منه ماء السطح مثل ميزاب الكعبة فوقفت على عبادته واجهدت نفسي عسى أجري معهم في ذلك ومنهم ظلي الممتد من شخصي أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسه بها وأشباه ذلك وأما الحيوانات فلنا منهم شيوخ ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم الفرس فإن عبادته عجيبة والبازي والهرة والكلب والفهد والنحلة وغير ذلك فما قدرت قط أن أتصف بعبادتهم على حد ما هم عليها وغايتي أن أقدر على ذلك في وقت دون وقت وهم في كل لحظة مع اعتقادهم بسيادتي عليهم يوبخوني ويعتبوني ولقد ألقى منهم شدة لما يرونه من نقص حالي في عبادتهم وربما يغتاظ بعضهم علي حتى تحجبه غيرته في دين الله تعالى من أجل تقصيري فيهم ويغيب عن سيادتي عليه لمعصيتي وسوء معاملتي مع الله فتزول طاعتي من عليهم وأعذرهم في ذلك وأسلم لهم في إخلاصهم فإن أبا بكر (رضي الله عنه) قد قال لما ولي الخلافة «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله

فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم» وقال الحق فينبغي لك يا وليي إذا آذاك حيوان من الحيوانات من كلب أو دابة أو حنش وغير ذلك من الأمة الحيوانية أو آذاك عود من شجرة أو ورقة من الأمة النباتية أو آذاك حجر بأن تعثر فيه أو يسقط عليك حائط أو يرميه صبي واحد على شيء فيترك الحجر المشي لما رمي له وينصرف إليك فلا تغضب وانصف وارجع مع نفسك على حالك وأقم عليها ميزان العدل فيما كلفك الله من مراقبته والحضور معه فلا بد ضرورة أن تجد قصوراً أو تفريطاً فيك في العبادة التي توجهت عليك مما تعبد به . ذلك الذي آذاك من حيوان أو نبات أو حجر فاستغفر الله وتب واخلص واعزم على أن لا تعود فإنه يذهب عنك ذلك الألم من حينه فإن تقويت خاطبك ذلك الذي آذاك فتسمى كرامة ، وليست الكرامة على الحقيقة إلا لتنبيهك لهذا وتوبتك وهروبك إلى مواطن الموافقة فلا يغرنك يا وليي قوله تعالى : ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ لم يقل فعلت ذلك ليسعدكم ولا أيضاً ليشقيكم فبقيت على قدم الحذر والغرور واقفاً فتحفظ فإنها آية فتنة يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء قال كليم الله موسى (ع) : ﴿**إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ فلا يغرنك رفعتك على جميع الموجودات من جهة الحقائق التي أنشأت عليها علواً وسفلاً فإنها ليست برفعة إلهية وإنما هي رفعة تعطيها الحقائق لا تعصم من نار ولا تدخل نعيماً ولا يدخل بها أهل الجنة في جنتهم وأهل النار في نارهم فلا فائدة فيها ولا سلطان لها على السعادة وبها زلت أقدام أكثر أهل هذه الطريقة وهي التي أخرجتهم عن الشريعة وإنما يغتر الإنسان بالرفعة الإلهية الاختصاصية الصفاتية الزائدة على الإنسانية وهي قوله تعالى : ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾ على ذلك عول أئمتنا وساداتنا من المعصومين الأنبياء والمحفوظين الأولياء وما ثم من يقتدي به إلا هؤلاء ، قال الله تعالى : ﴿**فبهداهم اقتده**﴾ وقال تعالى : ﴿**ثم**

أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ فهذه نعمة يجب عليك نظر قوي فيها ثم زادك الله تبارك وتعالى نعمة أخرى إلى هذه النعم فجعلك ناطقاً وفضلك على الحيوان الحساس خاصة فزدت معرفة بما يعرفه الحيوان فتزداد عبادة واجتهاداً على حسب الطور الذي انتقلت إليه وهنا عليك نعمتان كبيرتان النعمة الواحدة بأن أعطاك بنطقك حقيقة الملك وهو الاشتراك في العقل الإلهي فوجب عليك ما وجب على الملك من جهة روحك وقد سمعت بعبادة الملائكة التي أخبرنا الله بها على مراتبهم وقد دخلت أنت بعقلك معهم فتوجه عليك في روحك العقلي وسرك اللطيف الملكي ما توجه على الملك فأنت مطالب بالحضور الدائم وشاركت النازلين عنك من عالم الأجسام جمادهم ونباتهم وحيوانهم في حقائقهم التي لم يشاركهم فيها ملك فتوجهت عليك كما ذكرناه عبادتهم فكل عبد لله مطلوب في العبادة بما تقتضيه حقيقته فالملك مطلوب في عبادته بحقيقته ما عليه مزيد والحساس مطلوب بثلاث حقائق بحقيقة انفصاله من النبات والجماد وبحقيقتي اشتراكه مع عالم النبات والجماد ، وعالم النبات مطلوب بحقيقتين حقيقته التي أنفصل بها عن الجماد وحقيقة اشتراكه مع عالم الجماد ، وعالم الجماد مطلوب في عبادته بحقيقته ، فإنه لا شيء أرفع منه ، ولهذا أبداً يقابل العلو السفلي والأول الآخر والشيء نقيضه أبداً وأنت يا وليي الذي هو الإنسان مطلوب في عبادتك هذه بخمس حقائق حقيقة الملك فإنها فيك وحقيقة الحساس وحقيقة النبات وحقيقة الجماد وحقيقة الجمعية لهذه ، فإذا وفيت بشكر هذه الحقائق وتأيدت بها وعبدت الله على مقدار ما أعطاك من التمكين في الكشف من معرفتها إن كنت مريداً صادقاً بعد هذا تنتقل إلى أول قدم من ظاهر الشريعة ولا تقل إنك أرفع من الجماد ولا أشرف من الملك ولا أحط منه فإنك في طور آخر مفرد يخصك وذلك أن الله قد وهبك سر الجمعية العامة وهو الذي حجبك عن عبوديتك وبه ترأست حتى قيل في الملائكة ﴿بل عباد مكرمون﴾

فإنهم ما ترأسوا قط لعدم الجمعية العامة الكبريائية إلاَّ من حقائقهم فكانوا عبيداً وكذلك من نزل عنهم من طبقات العوالم إلاَّ أنت فإن سر الجمعية الكبريائية مثبوت فيك وبهذا صح لك مقام الخلافة على العوالم وبه طلبت التقدم والرئاسة واحتجبت عن الله تعالى وهو قوله «وأعوذ بك منك» فإن سر الجمعية العامة الكبريائية هو الذي حجبك عنه تعالى ولو أبقاك كما أبقى العالم معرى عنه لكنت عبداً فنبه نفسك ولما علم سبحانه أن سر الألوهية في الإنسان داء عضال كثر الأدوية فيه فما زال ينبهك في كتابه العزيز على أدويتك لهذا الداء لتستعملها فتبرأ منه فقال : ﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ فهذه حقيقتك الملكية وفي هذه الآية لم تزل الملائكة وقال الله : ﴿الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾ فالضعف الأول بحكم التحقيق لا بحكم التفسير خلقه إيَّاك علي عنى فطرة العالم كله والقوة نفحة سر الجمعية العامة الكبريائية فيك بعد تسويتك ، والضعف الثاني والشيبة هو ما حصل لك من شرب دواء المعرفة الذي أعطاك فاستعملته وبهذا تقع الفائدة فليست من نمط العالم في شيء ولا تتميز معهم ألبتة فإنك انفصلت عنهم بسر الألوهية فإن استعملته ولم تشرب من هذه الأدوية شيئاً خرجت مع فرعون والنمرود وكل من ادعى الربوبية على قدره من كلمة فرعون إلى قول الإنسان لولا ما قلت له كذا لا تفق كذا لولا أنا لهلك العيال وهي أدنى المراتب في الألوهية حتى الشيخ في هذه الطريقة يقول لولا همتي في فلان ما أصحبته إياها وإلاَّ فقد كان هلك وهذه كلها علل وأمراض من سر الألوهية وكل واحد من هذه الأصناف معاقب على قدره إما بالعقوبة الكبرى وإما بنقص الحظ فلا بد من العقوبة ولهذا يعلو البقاء عندنا على الفناء وهذه حقيقة لم يشعر بها من تقدم من أصحابنا فاعرفها يا وليي فإذا لم يتميز الإنسان مع العالم لسر الجمعية الكبريائية فلا يُقال من أشرف الملك أو الإنسان فصار الإنسان يزاحم الألوهية لوقوفه على الأسماء كلها من جهة سر

الجمع العام الكبريائي المثبوت فيه وخلافته فعظم حجابه وسجد له العالم أجمع من أجل ذلك السر فالقوى من التمكين هو الذي يخرق حجاب سر الجمعية العامة الكبريائية بينه وبين ربه حتى يشاهد ألوهية ربه دون ألوهيته فيعرف عبوديته فحينئذ يكون أقوى العالم وأشد لرفعة ذلك الحجاب الأقوى فتكون منزلته أعلى لأن قوته أعظم وهناك يتميز ويتجاري مع العالم في الرفعة والإنحطاط وهناك رأيت مبلغ العالمين العارفين وأما المدرك الذي أومئنا إليه فبعيد أن تسمعه في غير هذه الرسالة على درج هذا التحقيق لكن تجده مبدداً في أشياء كثيرة نومىء إليها ولا نوضح مثل هذا الإيضاح وكما توجه إليك بمشاركتك أطوار العالم أن تقوم بالجامع الكبريائي معهم في عبادتهم كذلك توجه عليك بالسر المثبوت فيك أن نجريه على ما أجراه الله من نفسه في خلقه فهو اللطيف بعباده فكن كذلك وهو الرحيم الغفور فكن كذلك وبهذا وصف نبيه (ص) فقال : ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ فسر الألوهية أثمر لك ما أثمر للجبارين المتكبرين قال تعالى : ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾ فمن أجل سر الألوهية ختم عليه بالشقاء ، فتحقق هذا الفصل وتحفظ منه واعلم أن التوبة والتوكل وما أشبه ذلك قد اختص الله بها هذا العبد الإنساني فإن الملك طاعة بلا معصية والشيطان معصية بلا طاعة فكلاهما فقد حلاوة التوبة ومقامها وسرها ومعرفتها وشرفها ومحبتها فإن الملك لا يعصي فيتوب فينالها والشيطان لا يجنح للطاعة ولا يحدث بها نفسه فيتوب من مخالفته فينالها وقد اختص بها هذا العبد المجتبى ولهذا كانت من كمال آدم (ع) حتى عم جميع المقامات فقال : ﴿**عصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ كذلك التطهير الذي اقترنت له محبة الله تعالى فإن الملك مطهر لا متطهر والشيطان مدنس لا يتطهر وعلق الله محبته الاختصاصية بالمتطهر فنالها الإنسان فما لنا يا وليي نغفل عن شكر هذه النعم ونحن منها في مزيد فهذه النعم كلها هي التي تعطيها حقيقة الإنسان بما خلق

عليه سواء كـان سعيداً أو شقيـاً ثم ننتقل إلى نعم الاختصـاص بالسعـداء التي تميـزك عن الأشقيـاء من جنســك فـأولهــا أن جعلك مـوحــداً ولم يجعلك مشركاً لا ليـد تقدمت لـك عليه ولكنـه أيدك وقـواك حتى خرقت حجاب الجمع العام الكبريائي الذي استودعه فيـك منه فنفـذت من ورائه إلى عبوديتك فعاينت ألوهيـة الحق المقدسـة فوحـدته ولم تشـرك وهؤلاء هم أهل «لا إله إلاّ الله» المقـطوع لهم بسعادتهم المنبه عليهم في كتابه العـزيز : ﴿**إن الله لا يغفـر أن يشرك بـه**﴾ وهنـا بحـور عـظام هلك فيهـا عـالم كثير من أهـل طـريقتنـا لعـدم التحقق ووقـوفهم مـع سـر الجمعيـة العـامة الكبـريائيـة الذي فيهم فحجبتهم الـرئاسـة عن استيفاء الخـدمة ، فهـذا اختصاص إذ قـد قسم جنسك إلى مـوحد وإلى مشـرك وجعلك من حـزب المـوحـدين وهنا تفصيـل كثير نخـاف من طول العجـالة في إيـراده فتركناه وهذا هو أول قدم في الشريعـة فإن الشـارع أول ما أتي بـه «لا إله إلاّ الله» فلم يجبـه إلاّ من خـرق حجـاب سـر الجمعيـة الكبـريـائية منـه وبهـذا يقـع الاشتـراك وتتبـاين مـراتب أهـل «لا إلـه إلاّ الله» على حسب رفع حجابهم فمنهم من يقولها ابتداء معه من غيـر نظر وهـو الإمام ومنهم من يقول معه ذلك بعد رؤية برهـان فهذا بـ جاهـل بنفسه فإن «لا إله إلاّ الله» من مدركات العقل بالنور الإلهي فتوقفه دليل على التقليـد وفقد ذلـك النور ولكن سعد بإجابته ولو ببـرهان قـال تعالى : ﴿**لا يستـوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقـاتل أولئـك أعظم درجـة من الذين أنفقـوا من بعد وقـاتلوا وكلا وعـد الله الحسنى**﴾ فاعبـد الله يـا وليي واجتهـد على شكـر نعمـة التوحيـد الأولية في الشـرع لأهل التقليـد ثم زادك إلى هذه النعمـة نعمة أخرى وهو إيمانك بالرسول (ص) ولم يجعلك مكـذباً بـرسولـه كما فعل بغيرك من أبناء جنسك حيث كفر برسـوله مثـل فرعـون وآله بمـوسى (ع) والنمـرود وآلـه بـإبـراهيم (ع) وأبي جهـل وأصحـابـه بمحمـد (عليه الصلاة والسلام) وعذاب كل فـرعون على مقـدار نعيم نبيه الـذي كفر بـه وسفله على قـدر علو نبيه ، وكـذلك العـارفون الصـالحون مـع المنكرين

عليهم من الفقهاء علماء الرسوم ينقص من حظ نعيمهم في الدار الآخرة على قدر مرتبة العارف الذي أنكروا عليه وعليهم نقص نعيم أتباعهم في ذلك المقلدين لهم فينقص للفقيه صاحب علم الرسم إذا أنكر على الولي العارف ما لا يبلغه علمه من نعيمه في الجنان إذا سعد على قدر مرتبة ذلك الولي في المعرفة بالله وقدر السر الذي أنكر عليه وعلى قدر من اتبعه في إنكاره من المقلدين ومن هذا كان يفزع شيخنا أبو عمران الماتلي وكان من أهل علم الرسوم وعلم هذه الطريقة وهو الذي ذكرناه في جملة أشياخنا من أهل الطريق في هذه الرسالة نحا منحاً المحاسبي دخل عليه أبو القاسم بن عفير خطيب إشبيلية فتكلم معه فيما يأتي به أهل هذه الطريقة من المعارف التي تقصر أفهام علماء الرسوم عنها لأنها علوم نبوية وهذه العلوم الخيرية لا يقوم دليل العقل عليها فلم يبق إلاّ مجرد الإيمان بها لأنها علوم أخبارية تحتمل الصدق والكذب وكذلك إذا أتى بها الرسول يتلقوها الفقهاء بالقبول فلو أحالها العقل لردت أبداً في كل حال وما يشعر الفقهاء بهذا القدر فقال أبو القاسم الفقيه لشيخنا أما أنا فأنكرها فقال له الشيخ أبو عمران أما أنا فأومن بها كلها وإياك يا أبا القاسم أن يجمع الله علينا فيها حرمانين لا نراها من أنفسنا ولا نصدق بها من غيرنا فيكون العامي أحسن حالاً في ذلك عند الله فتنبه الفقيه أبو القاسم الخطيب وقال نبهتني (رضي الله عنك) ولم أحضر هذا المجلس ولكنه أخبرني به أبو القاسم الفقيه المذكور المنكر ، ومن ذلك الوقت صار يحبني وينظرني بعين التعظيم فقد حبانا الله يا وليي بالإيمان بالنبي (ص) حين خذل غيرنا ففرض علينا شكر الله وعمل زائد بمزيد هذه النعمة ثم نعمة أخرى لما جعلك مؤمناً بنبي جعلك من أمة محمد (ص) ولم يجعلك من أمة غيره من الأنبياء وهنا نعم منها أن ألحق هذه الأمة بدرجة الأنبياء في أتباعهم محمداً (ص) وعيسى (ع) من جملة أمة محمد (ص) وهو رسول الله وروحه وكلمته وقد دخل في عدادنا وهذا مقام والنعمة الأخرى أن

جعلك شهيداً على سائر الأمم وهي مرتبة النبوة فإنهم الشهداء على أممهم قال تعالى : ﴿**يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**﴾ فالأنبياء شهداء على أممهم وقيل فينا ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾ فقد شوركنا معهم في هذه ، فهذه مواطن نحشر فيها غدا مع النبيين وقال تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ وقال : ﴿**جعلناكم أمة وسطا**﴾ فوصفنا بالعدالة ﴿**لتكونوا شهداء على الناس**﴾ وإن شئت جعلته من الشيء بين الشيئين شهادتك على الناس وشهادة الرسول عليك أنت بينهما ونعمة أخرى لم يعطها أحداً قبلك من الأمم فإنك مؤمن بنبيك آخر الأنبياء وبمن تقدم إلى آدم وغير ذلك من النعم التي يتضمنها هذا المقام ولكل نعمة شكر يخصها وعمل يطابقها فلتجهد في تحصيله أو تحصيل ما أمكن منه ثم بعد هذا أن قسم أمة نبيه بين مبتدع ومحفوظ فحفظك من البدعة وميزك في ديوان السنة فهذا اختصاص ثم أهل السنة قسمهم قسمين عالم وجاهل فجعلك عالماً بما تعبدك به من شريعته ولم يجعلك جاهلاً بذلك فهذه نعمة يجب أيضاً شكرها ثم جعل العالمين على قسمين طائع وعاص فجعلك من الطائعين ولم يجعلك من العصين فهذه نعمة عظيمة والطاعة على مقاماتها أن عصمك من الشيء تنقيصه وذكره يطول ثم جعل الطائعين على قسمين عارف وعابد فجعلك من العارفين العابدين فهذه نعمة يجب الشكر عليها ثم قسم العارفين وارث وغير وارث وجعلك من الوارثين على حسب مراتبهم لقد غمرت النعم ولا يتسع الليل والنهار لأداء شكر واجبات هذه النعم وإنه إن اشتغلنا بواحدة منها فغايتنا أن نقطع ضياءنا وظلامنا ببعض ذرة من واحدة منها فعلى هذا يجب علينا الذي يمكننا أن نفعله أن لا يرانا الله وقتاً واحداً بطالين ولا متصرفين في مباح إلاَّ حاضرين بقلوبنا على الدوام مكفوفي الجوانح عن التصرف المحظور علينا مطلوقي الألسنة بالذكر وبإظهار العلم والشكر عليه والاعتراف بالتقصير وتوبيخ النفوس الذي أراده الحق منا

لا تعديلها وتزكيتها فـ : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ بالأعمال الصالحة ﴿وقد خاب من دساها﴾ مثلي فأدخلها في الصالحين وليست منهم فهذه يا أخي نصيحتي لي ولك ولما رأيتك مثلي واحببتك في الله وأعجبني إنصافك وتعشقت معاشرتك وودت اليوم أن أكون معك حيث كنت تنصحني وأنصحك وتوبخني وأوبخك ونكون رفيقين محبين حتى نموت فما أحبني فيك وأشفقني عليك (رضي الله عنك) ولقد تمنيت أن أكون معك كما حدثنا أبو محمد يحيى بن أبي الحسن (رضي الله عنه) قال حدثنا أبو الفتح عبدالباقي بن أحمد بن سلمان حدثنا أبو الفضل بن الحسين بن خيرون حدثنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان حدثنا أبو الحسن بن عبد العزيز الخرزي حدثنا أبو حفص التنسي حدثنا أبو معبد قال سمعت بلال بن سعيد يقول : أخوان في بني إسرائيل خرجا يتعبدان فلما أرادا الطريق تفرق بينهما قال أحدهما لصاحبه خذ أنت في هذا الطريق وآخذ أنا في هذا الطريق فإذا كان آخر السنة فهذا الموعد بيني وبينك فخرجا يتعبدان فلما كان في رأس السنة اجتمعا في ذلك الموضع فقال أحدهما لصاحبه أي ذنب فيما عملت أعظم قال بينما أنا أمشي على الطريق إذ بسنبلة أخذتها فألقيتها في إحدى الأرضين أرض عن يميني وأرض عن شمالي ولا أدري هي للأرض التي ألقيتها فيها أم للأخرى قال ثم قال المسؤول للسائل أي ذنب فيما عملت أعظم قال لا أعلم ، إني كنت أقوم إلى الصلاة فأميل مرة على هذا الرجل ومرة على هذا الرجل فلا أدري أكنت أعدل بينهما أم لا ، فسمعهما أبوهما من داخل الدار فقال اللهم إن كانا صادقين فأمتهما فخرج فإذا هما قد ماتا فهكذا يا وليي يكون اجتماع أهل الله ومخاطباتهم على ذكر المعايب والإنصاف لا على وجه المدحة والإتصاف هل يذكر في السجن إلاَّ ما يليق به إذا ترحلت ونزلت في مستقر الرحمة وجنيت ثمرة عملك ، هنالك تذكر ما يليق بموطن الحسنى من محاسنك وأما هنا فلا ، فإنها دار البلاء والاقتراف

والاجتراح والإنسان فيها من نبي وغير نبي مسجون على دمه لا يخرج منها إلّا بالقتل ولولا التطويل لتكلمنا على مراتب السجن والمسجون بما تعطيه الحقائق الثابتة والعادية ويكفي هذا القدر فيما بيني وبينك ويعلم الله لولا ودي فيك وحرمتك التي لك في نفسي ما خاطبتك بشيء من هذا كله ولا ذكرت اسمك ولتركتك مهملاً في جملة عباد الله تعالى ، لكن الله قد عرف بيني وبينك روحاً وجسماً ومعنى ورسماً فلم أتمكن أن أخاطبك إلّا بما يقتضيه الود الصريح والدين الخالص الصحيح وأما فضلك وتقدمك في طريقك عندي فمشهور و **﴿فوق كل ذي علم عليم﴾** و **﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾** وقل اليوم من يصحبك لله فأكثر الصحبة معلولة في زمانك من أجل هذه الأعراض واستحكام سلطان الأغراض وعبد الله قليل ، ولنا في معنى هذا أبيات ، وهي :

انظر إلى هذا الوجود المحكم ووجودنا مثل الرداء المعلم
وانظر إلى خلفائه في ملكهم من مفصح طلق اللسان وأعجم
ما منهم أحد يحب إلهه إلّا ويمزجه بحب الدرهم
فيقال هذا عبد معرفة وذا عبد الجنان وذا عبيد جهنم
إلّا القليل من القليل فإنهم سكرى به من غير جنس توهم
فهم عبيد اللّه لا يدري بهم أحد سواه لا عبيد المنعم

إلى آخر القصيدة فاجهد نفسك يا ولي في أن تتحلي بحلية قوم بكى رسول الله (ص) شوقاً إليهم لا يؤثر فيهم كلام المغرورين من الفقهاء علماء السوء الذين لبسوا رقاق الثياب وتناولوا لذيذ المطاعم ، فإذا قلت لهم في ذلك تلوا عليك **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾** فقد أخبر النبي (ص) أنهم سيقولون هذا قلت لهم في ذلك على ما كتب فيه إلينا شيخنا أبو محمد بن محمد بن سعيد الله بن محمد البجلي البغدادي الحنفي (رضي الله عنه) من حديث سعيد بن زيد بن نفيل قال سمعت النبي (ص) وأقبل على أسامة بن زيد

فقال : «يا أُسامة عليك بطريق الجنة وإياك أن تختلج دونها فقال يا رسول الله وما شيء أسرع ما يقطع به ذلك الطريق قال الظمأ في الهواجر وكسر النفس عن لذة الدنيا ، يا أُسامة وعليك عند ذلك بالصوم فإنه يقرب إلى الله عزّ وجلّ إنه ليس من شيء أحب إلى الله عزّ وجلّ من ريح فم الصائم وترك الطعام والشراب لله عزّ وجلّ وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل فإنك تدرك شرف المنازل في الآخرة وتحل مع النبيين (صلوات الله عليهم أجمعين) تفرح بقدوم روحك عليهم ويصلّي عليك الجبار تبارك وتعالى وإيّاك يا أُسامة وكل كبد جائع يخاصمك إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة وإياك يا أُسامة ودعاء عباد قد أذابوا اللحوم وأحرقوا الجلود بالريح والسمائم وأظمئوا الأكباد حتى غشيت أبصارهم فإن الله عزّ وجلّ قد نظر إليهم وباهى بهم الملائكة (ع) بهم تصرف الزلازل والفتن» ثم بكى النبي (ص) حتى اشتد نحيبه وهاب الناس أن يكلموه حتى ظنوا أن أمراً قد حدث بهم من السماء ثم تكلم فقال : «ويح لهذه الأمة ما يلقى منهم من أطاع الله ربه عزّ وجلّ فيهم كيف يقتلونه ويكذبونه من أجل أنهم أطاعوا الله تعالى» فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : «يا رسول الله والناس يومئذ على الإسلام قال نعم قال ففيم إذن يقتلون من أطاع الله وأمرهم بطاعة الله فقال يا عمر ترك الناس الطريق وركبوا الدواب ولبسوا لين الثياب وخدمتهم أبناء فارس يتزين الرجل منهم تزين المرأة لزوجها ويتبرج النساء زيهم زي الملوك الجبابرة ودينهم دين كسرى وهرمز يتسمنون بالجشاء فإذا تكلم أولياء الله عزّ وجلّ عليهم العباء منحنية أصلابهم قد ذبحوا أنفسهم من العطش فإذا تكلم منهم متكلم كذب وقيل له أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تحرم زينة الله والطيبات من الرزق ويتلون كتاب الله عزّ وجلّ على غير علم استذلوا أولياء الله عزّ وجلّ أعلم يا أُسامة أن أقرب الناس إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة من أطال حزنه وعطشه وجوعه في الدنيا الأخفياء الأبرار الذين إذا شهدوا

لم يقربوا وإذا غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الأرض يعرفون في أهل السماء ويخفون عن أهل الأرض وتحف بهم الملائكة تنعم الناس بالشهوات وتنعموا هم بالجوع والعطش لبس الناس لين الثياب ولبسوا هم خشن الثياب وافترش الناس الفراش وافترشوا الجباه والركب ضحك الناس وبكوا يا أسامة لا يجمع الله عزّ وجلّ عليهم الشدة في الدنيا والآخرة لهم الجنة فياليتني قد رأيتهم يا أسامة لهم الشرف في الآخرة ويا ليتني قد رأيتهم الأرض بهم رحبة والجار عنهم راض ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوا ، الراغب من رغب إلى الله مثل رغبتهم والخاسر من خالفهم تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الله على كل بلدة ليس فيها مثلهم يا أسامة إذا رأيتهم في قرية فاعلم أنهم أمان لأهل تلك القرية لا يعذب الله عزّ وجلّ قوماً هم فيهم اتخذهم لنفسك عسى أن تنجو بهم وإياك أن تدع ما هم عليه فتزل قدمك فتهوى في النار طلبوا الفضل في الآخرة تركوا الطعام والشراب على قدره لم يتكابوا على الدنيا إنكباب الكلاب على الجيفة شغل الناس بالدنيا وشغلوا أنفسهم بطاعة الله عزّ وجلّ ولبسوا الخلق وأكلوا الفلق تراهم شعثاً غبراً يظن الناس أن بهم داء وما ذاك بهم ويظن الناس أنهم خولطوا وما خولطوا ولكن خالط القوم حزن وتظن أنهم ذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظروا بقلوبهم إلى أمر ذهب بعقولهم عن الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول ، يا أسامة عقلوا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف في الآخرة» فانظر يا وليي حب حبيب الله ورسوله لأولياء الله وكيف نعتهم فعلى هذا الوصف ينبغي أن نعتكف وبه نتصف حتى نتقلب إلى الله ونحن بهذا النعت منعوتون وبهذه الحيلة متحلون فاجتهد يا أخي في ذلك ولا تتأخر عنهم ومدني بالدعاء والهمة فإن المطلوب اليوم معدوم جداً ولما رأيت القرين الصالح معدوماً والطبيب المشفق الناصح غير موجود تأسفت لذلك وحظ كل إنسان السرور بما هو فيه ، لا يتنبه لعيب أخيه فينبه ذلك

لعيبه فيتصاحبا بالنصيحة وتحصل لهما المرتبة الصحيحة فعملنا في عدم القرين الناصح وفتنة الإنسان بحاله أبياتاً ، وهي :

ذكـرت ذنبي فـأبكـاني وحيـرني ... لمـا غـدا من جـوار اللّه يـطردني
كيف الخلاص وما ضيعت من عمري ... بـه المهيمن يـوم الحشـر يـطلبني
يا ليت أذني لم تسمع حديث هوى ... يـا ليت عيني لم تنـظر إلى حسن
يـا ليت كفي لم تخلق ولا قـدمي ... ولا لساني ، وليت القلب لم يكن
أو ليت إذ كان خلقي كان يسعدني ... تـوفيق ربـي في سـر وفـي علن
ولا أهيم بـشخص لـيس ينـفعـني ... يـوم النشـور إذ الـرحمن يسـألني
ولا نـدبـت ديـاراً كنـت آلفـهـا ... ولا حـننـت إلى ربـع ولا سـكـن
ولا تغـزلت في ورقـاء صـادحـة ... على الأراك تغني وهـي تنـدبـني
ولا شربت حمياً ضن حابسها بهـا ... على الشرب من عهد ابن ذي يزن
ولا تمنيت شيئـاً لست مـدركـه ... ولا قـطعت بأسبـاب الـردى زمني
ولا تـكلمـت في عـلم ومعـرفـة ... حتى دعيت لـه العـالم الـفـطن
وظـل إبليس الملعـون يلعب بي ... وحرقة الذنب في الأحشاء تحرقني
كم ذا أقيم على الإتيـان مكتتمـاً ... وأنت سبحـانـك اللهم تحفـظني
أمسي وأصبـح في شيء يقـربني ... إلى الشقـاء ومن سعـد يبعـدني
كم ذا أبـارزه بـالـذنب مستتـراً ... عن العـبـاد وعيـن الله تنـظرنـي
ولا حيـاء من الـرحمن يـوقـظني ... من نـومـة لعـذاب اللّه تحملني
سـوى خليـل رآني في تعـريـة ... فحـل مني محل الـروح من بدني
فـلا أزال إذا يـلهـو أبـصـره ... ولا أزال[1] إذا أسهـو يـذكـرني
فـليس خلي إلاَّ مـن يـرى زلـلي ... فـلا يـزال مـع الأحيـان ينصحني
فالصاحب الحق كالصابون يذهب ما ... في الثوب من دنس الأقذار والدرن
لمـا سمعت رقيبي وهـو يـطعنني ... من عن يميني وينهـاني ويزجـرني
يـا سيـدي ورعـاك الله تسمعني ... كم مـرة جئت والبـواب يمنعـني

(١) في الهامش : يزال .

وليس شخصاً فتؤذيه وتضربه ... لكنه فعلك المرفوع في الكفن
فانظر إليه وحسن حلق صورته ... فهو الأنيس إذا استوحشت في الحبن
وهو الذي يدفع الخصمين عنك إذا ... ما أفتناك وذا من أعظم الحنن
فعندما سمعت نفسي مواعظه ... حنت وقالت ترى الرحمن يقبلني
فقلت يا نفس مهما كنت ساعية ... إليه هرولي بالآلآء والمنن

فيا وليي أبقاك اللّه تعالى

لقد كنت أخشي أن تقول بحرقة ... مقالة عبد خالف الحق في القصد
أنوح على نفسي وأبكي لغفلتي(١) ... وأندب قلباً حاد عن سنن الرشد
إذا كان قربى من إلهي مقارناً ... لقرب، فؤادي من إلهي فيا بعدي
فإن هو جازاني على فعلتي فما ... جزائي سوى الإقصاء بالعنف والطرد
ولكنني أرجوه سراً وجهرة ... فإن كان هذا الوجد يجدي فيا جدي
وإن كنت بدراً أذهب الجهل نوره ... فما قريب ينعم اللّه بالرد
ولم يقضني ذنبي ولا سوء فعلتي ... فإتيان سوء الذنب أليق بالعبد
كما الجود والصفح الجميل مع الرضي ... لأليق شيء في الوجود بذي المجد
وقد ثبت المجد الكريم لخالقي ... وقد ثبت الإيمان عندي فيا سعدي

فهذا يا وليي ما أمر الله وليك وصفيك أن يخاطبك به ﴿والله لا يستحي من الحق﴾ وحق الله أحق . واعلم أن هذه الرسالة من أعظم منن الله عليك ومن أسنى تحفة إليك والسلام الطيب المبارك على النبي ورحمة الله وبركاته والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وعليك رحمة الله وبركاته والسلام علينا وكذلك يخصكم بالسلام الأتم عبد الله بدر الحبشي وجميع إخواننا وسلامي يتردد على أبنائك وأصحابك وأوليائك الشيخ المبارك السعيد بخدمتك أبو عبد الله بن المرابط والشيخ الموفق أبو عتيق والجار الصالح الحاج معافا وأبو محمد الحافظ والذكي المجتهد أبو القاسم القابسي والفقير الصادق

---

(١) في الهامش : لعله لفعلتي .

عبد الجبار والخديم المبارك الناصح عبد العزيز البابلي ووليي وصفيي الذي آخيت بيني وبينه أبو عبد الله القطان ولو نعيت إليكم محمداً التائب(رحمه الله تعالى) مات بين مكة والمدينة على مرحلة من مكة بين مرو وعسفان زائراً نبي الله (ص) شهيداً بين الحرمين يحشر يوم القيامة آمناً . وكتب إليكم وليكم بهذه الرسالة من مكة (حرسها الله وشرفها) في شهر ربيع الأول سنة ستمائة وطاف بها أسبوعاً وألمسها الحجر الأسود والملتزم والمستجار وأدخلها البيت والمواضع الفاضلة تيمناً وتبركاً والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله الطاهرين وصحابته أجمعين وجميع عباد الله الصالحين وسلم تسليماً .